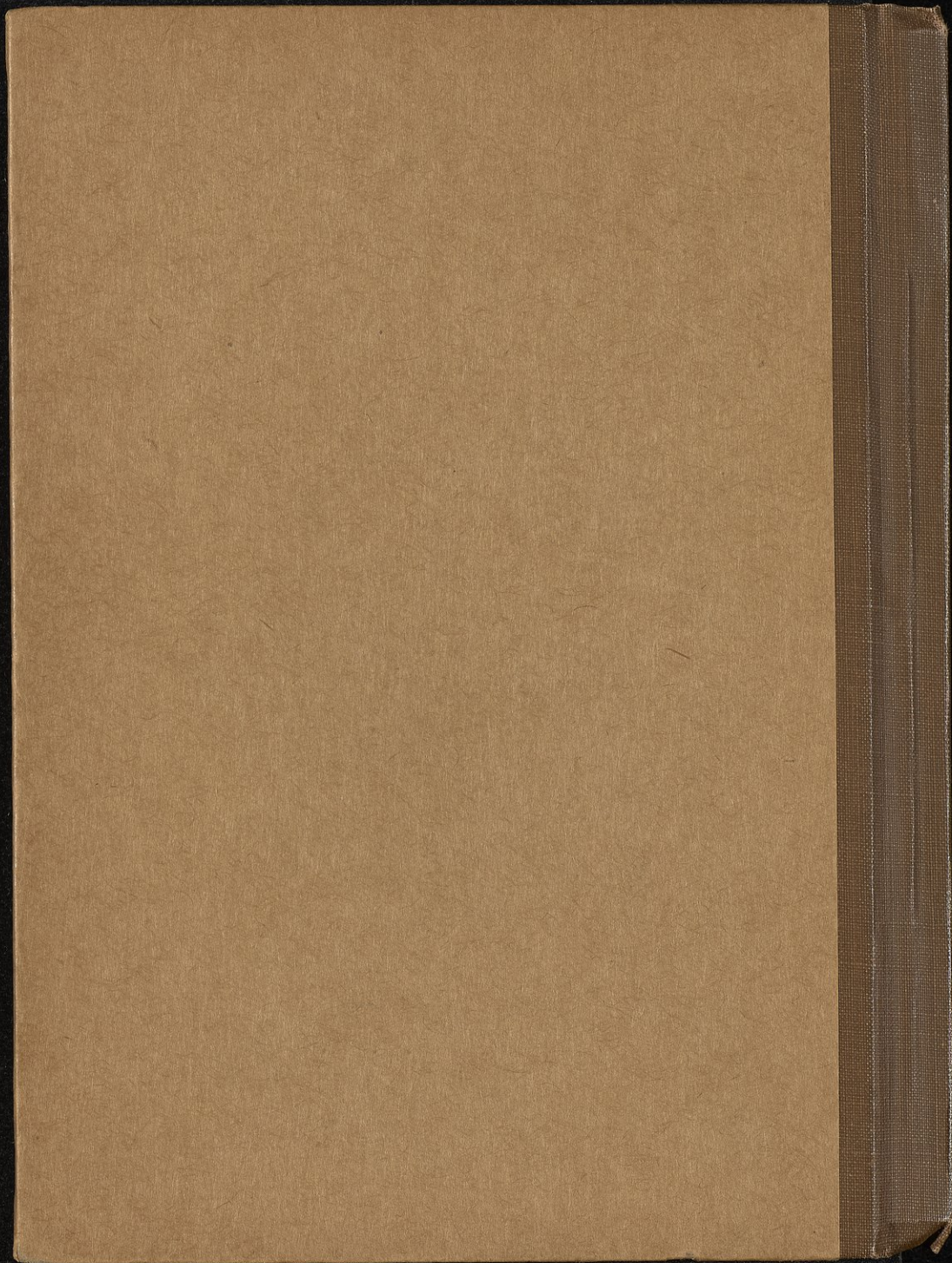
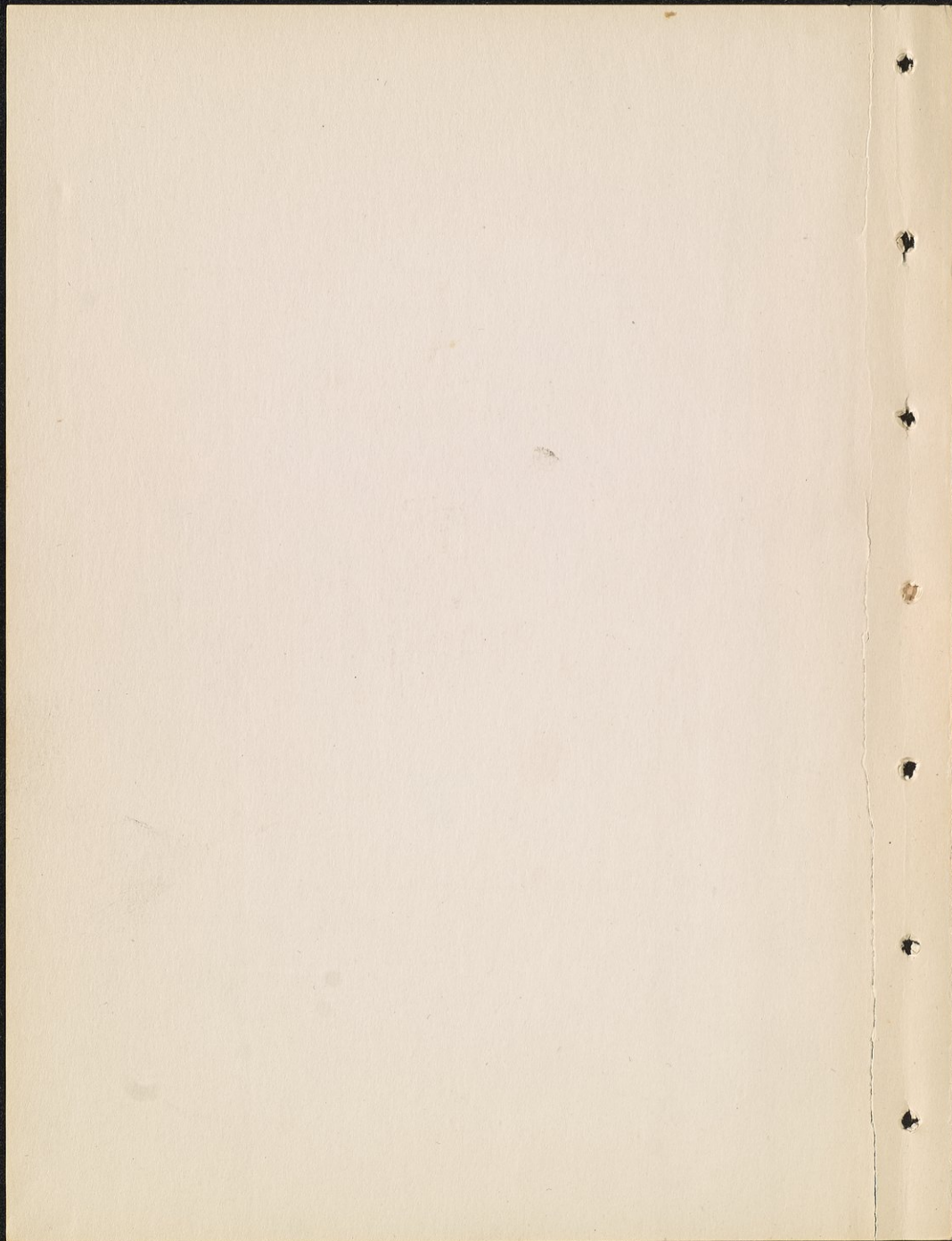


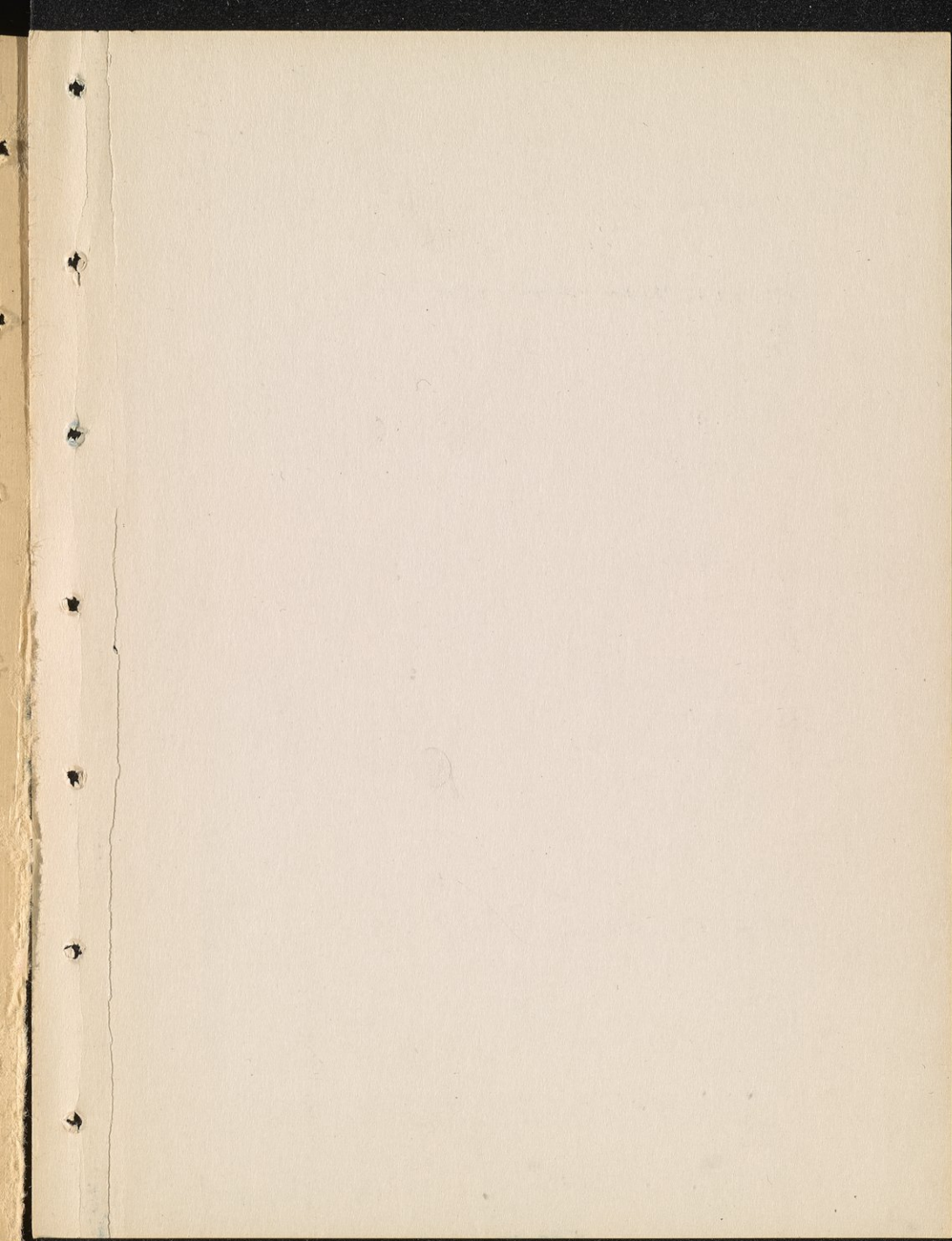


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



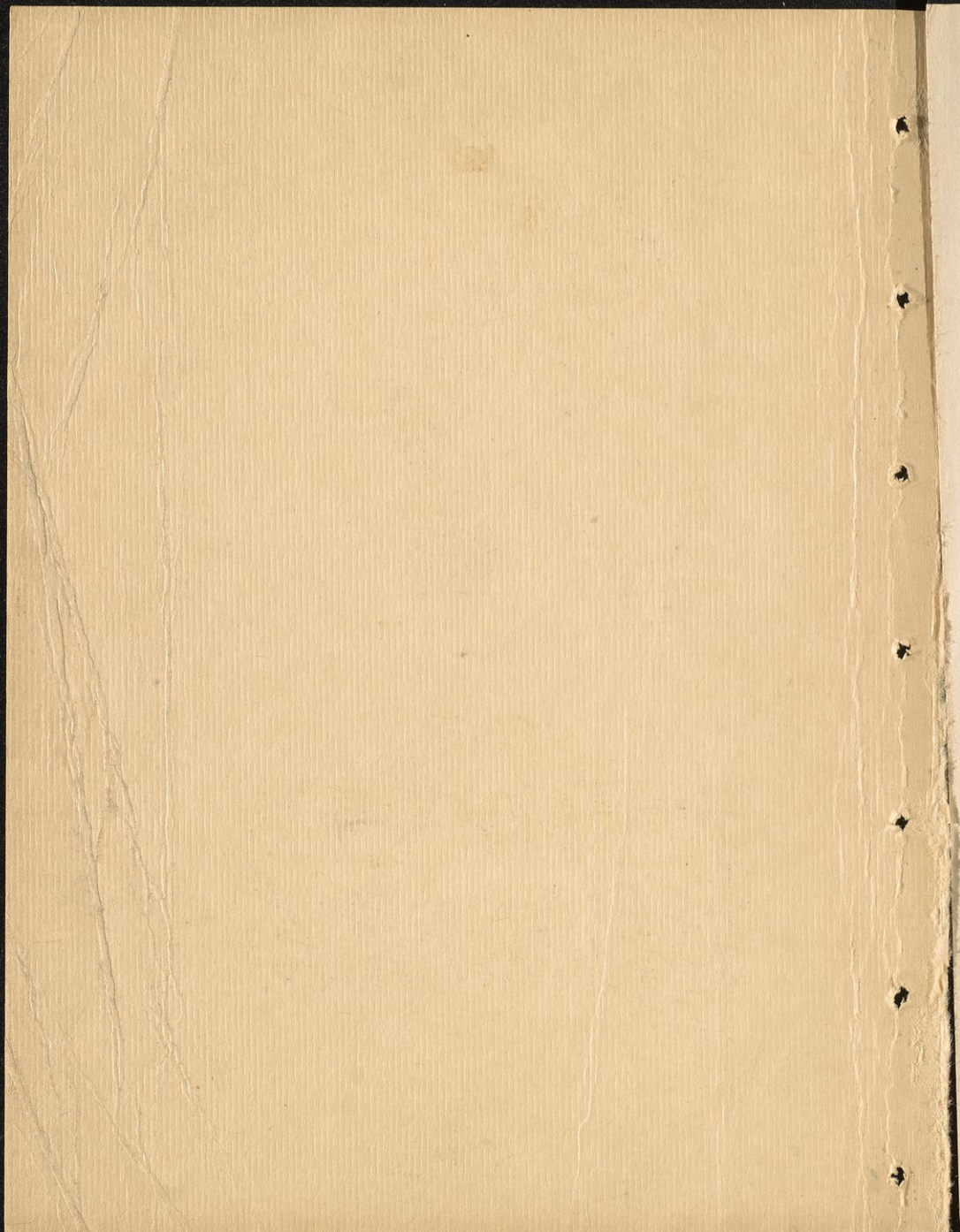




إبوالشهاب

محمود ديب

دار المعارف بمصر



أَبُو الشَّوَّارِبِ

وَقَصَّ أَخْرَى

٨٩٣. ٧٧١٣٦

M 33

الطبعة الأولى — سنة ١٩٥٣ م

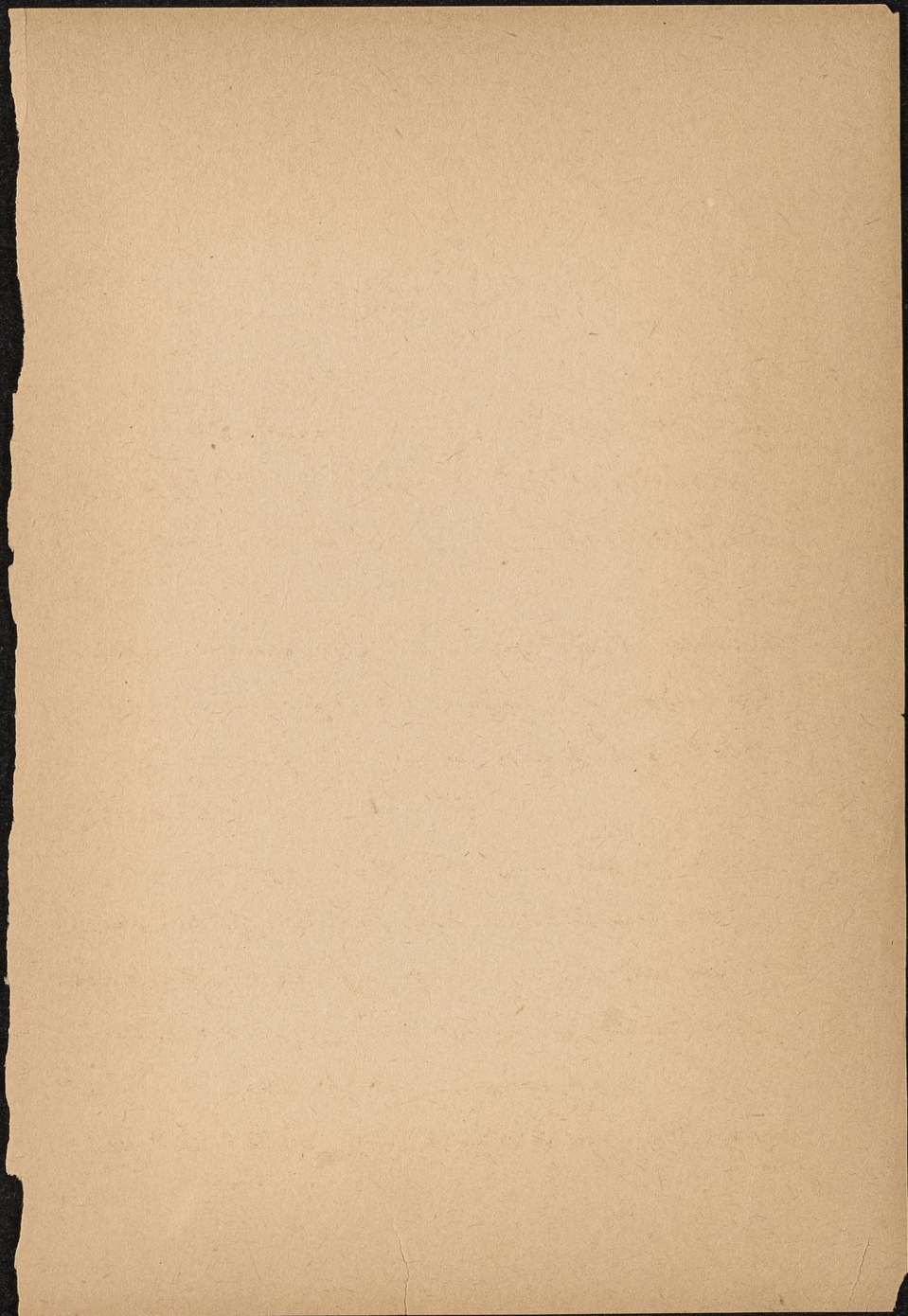
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

محمود تيمور

أَبُو الشَّوَّارِبِ

وقصص أخرى

دار المعارف بمصر .



أبو الشَّوَّارِبِ

بارح « عاشور أفندی » — أو بالخری : « الشاويش عاشور » —
داره فی الضحوة العالیة ، تاركاً بلدته « كفر الشمارة » ، ووجهته ضیعة
« الحاج رمضان » ، وكانت الضیعة علی مسیرة نصف ساعة من ذلك
الكفر .

ومضى الرجل یقطع الطریق التَّربِ الذی تتعاقب فیهِ الفجوات ،
وهو مرفوع الهامة ، مبسوط القامة ، یضرب الأرض بخطوات مترنة
ثقال ، هی خطا الشرطی الأصل ، وشاربُهُ الضخمُ المسنون الأطراف
یهتز فی خيلاء .

كانت شارة الشرطی وشيائهُ تتجلی فی كل مظهر من مظاهره ،
وإن تخلت عنه تلك الحلة العسکریة ذات الشرائط المُتَصِّبَةِ ، والأزرار
النحاسیة البراقة . . . فقد أصبح حراماً علیه أن یرتدی هذه الحلة منذ
أشهر سلفت ، إذ أحیل إلى التقاعد ، فاستبدل بها الجلباب الفضفاض
المتهدل الكمین ، الكاشف عن النحر ، یخبّ فیهِ خبئاً .

لقد استقبل « الشاويش عاشور » رسولا من « الحاج رمضان » یدعوه

أن يزوره في ضيعته ، ولم يكن قد رآه قط ، وإن سمع به ، وعرف أكثر شأنه . . . « فالحاج رمضان » غطريف من غطارفة الريف ، يمتلك ضيعة رحيبة الأرجاء ، تتيح له أن يحيا في بسطة من العيش ويسر ، وإنه لعظيم قومه ، لا يكاد يعلو عليه أحد من عُشرائه وجِيرَتِه في الغنى والجاه ورفعة المقام . . .

لم يكن في وسع « الشاويش عاشور » إلا أن يستجيب لهذه الدعوة ، وإن كان في قرارة نفسه لا يستجيب عن طوعية وترحيب ، فقد استقر به المقام في مسقط رأسه « كفر الشمارتة » ، وقد بنى عزمه على أن يمضي فيه ما كتب الله له من أيام ، مستمرّاً السكينة والهدوء ، متسكياً عن زحمة الحياة ، مترهّداً في صحبة الناس ، ولا سيما أولئك الوجهاء والأعيان من ذوى الأسماء النابهة والجاه العريض . . .

حَسَبُهُ من الضجة والصخب ما لقي في سِنِيهِ الثلاثين اللواتي أمضاهن في دار « المحافظة » بالقاهرة ، إذ كان يحيا في أكناف عصابة من الرؤساء ، يملأون الدنيا دَوِيّاً بألقابهم الطنانة ، ومناصبهم المهيبية ، ويرى نفسه ظلا من ظلالهم التي تتبعهم أينما كانوا ، أو مطية من مطاياهم التي تتقاد لهم فيما أرادوا ، أو عصاً من عَصِيَّتِهِمْ يُلوّحون بها في وجوه الناس تارة ويلهبون بها أجسادهم تارة أخرى . . .

وهل يذكر « الشاويش عاشور » إلا أنه كان خلال تلك الحقبة

المديدة يجد نفسه كأنه دمية تتحرك بلولب ، فهو في يومه الأطول ماثل
يرفع يمناه ويهبط بها في حركة آلية ليؤدي تحية قدوم أو تحية وداع ...؟
وما كانت دار « المحافظة » تخلو ساعة من عطاء وأشباه عطاء ، ومن
رؤساء وأشباه رؤساء ، لزام عليه أن يحییهم كلما لاحت أشباحهم من بعيد
في قدوم أو انصراف .

لا غرو أن يستشعر الرجل ضيقاً بهذا النفر من خلق الله الذين
يمشون في الأرض مرحاً ، تشمخ أنوفهم كبيراً ، ولكن ضيقه بهم يتضاءل
بل يتزائل إذا وُوزن بما يحس من الكراهية والبغضاء لرئيس له عمل معه
أثناء السنوات العشر الأخيرة من خدمته ، وهذا الرئيس هو « عشاوی
المحافظة » أو بتعبير واضح : جلادها الأعظم « الحاج درویش » .

كان « الشاویش عاشور » ظلاً حقاً لهذا « العشاوی » ، ولكنه
ظلّ ناضل هزيل . . . قصارى مهمته معه أن يأتي إليه بالجانى المحكوم
عليه بالإعدام ، من حجرة السجن إلى حجرة المشقة ، يسوقه كما تساق
الشاة إلى المذبح ، ثم يلبث معه حتى يشهد تنفيذ الحكم ، ثم يرافق الجثة
حتى يتسلمها ذووها من يديه . . . يا له من عمل خطير كان يؤديه . . .
لا يكاد يورّد بضاعة حية « للحاج درویش » حتى يتلقاها منه رفاتاً
هامداً تَعْمُرُ به القبور .

والنبي « الشاویش عاشور » نفسه قد بلغ مشارف الضيعة التي يملكها

« الحاج رمضان » ، فقد لاحت له أبنية ريفية غير متناسقة ، وإليها لعتيقة عسيثت بها يد البلى ، فال بعضها على بعض تخشى أن تسقط ، أو تريد أن تنقض ، وقد أحاطت بها شجيرات « العبل » ، وانتشرت حوالها نُخيلات عجائز . . .

وانقضت زيارته لرب الضيعة ، فانصرف من لدنه راجعاً أدراجه إلى « كفر الشمارة » ، وما إن خطا بضع خطوات حتى جعل يضرب جبهته بكفه ، وقد احتقن وجهه بغتة ، وأخذ يردد :

كلا . . . لن يكون ذلك . . . هيات !

وثار على نفسه : كيف سارع إلى قبول ما عرضه عليه « الحاج رمضان » ، إذ رغب إليه في أن يعمل عنده شيخاً لخفراء الضيعة . . . كيف أذن لذلك دون روية ولا تدبر ، كأنما هو يتلقى قدراً محتوماً لا معارضة فيه ولا نزاع ؟ . . . كلا ، لن يقبل أن يعمل عند أحد ، وإنه لعائد في بكرة غده ليسنى إلى رب الضيعة اعتذاره .

وسار في الطريق ، مضطرب الخطو ، يسرع حيناً ويبطئ ، ويده لاني تلمس لبدته المتعالية ، موهماً نفسه أنه يصلح وضعها على رأسه .

ما أعجب ما شهد في هذه الزيارة . . . يا لله لهذا الشبه القريب بين « الحاج رمضان » رب الضيعة وبين غريمه القديم « الحاج درويش . . . عشماوى المحافظة » . . . لولا علمه على وجه اليقين أن « الحاج درويش »

الجلاد قد بات اليوم في ذمة المنون لما شك في أنه هو نفسه « الحاج رمضان » . . . لقد أقبل « عاشور » يُحيي ربّ الضيعة في منظره الضيوف ، فرآه ماثلاً وسط الحجرة ، في قوام متكفل كأنه كرة مفرطحة ، ورأس ضخم يختفي تحت عمامة محبوبكة ، ووجه مطهّم هادئ القسما ، وعينين تنسدل أجفانهما أو تكاد ، وأصابع تنقلّ حبات السبحة في رفق ، فما إن ملأ منه عينيه حتى أخذته البغّة ، وأوشك أن يصرخ قائلاً :

إن « عشاوى » المحافظة قد بُعثت ثانية إلى الوجود !

ولم تكن منظره الضيوف خالية من زوار يتحلّقون حول « الحاج رمضان » ، فاحتسى « عاشور » القهوة معهم ، وبادلهم كلمات المجاملة ، وطارحهم الحديث في بعض الشئون ، وما لبث أن ألّفى نفسه يقص على مُضيفه طرفاً من أحداث حياته ، ويحيب عن أسئلته واستفساراته ، وقد أحس من فوره هيبة له ، وما هي إلا أن استسلم لما عرضه عليه من العمل معه في الضيعة شيخاً للخفراء .

وكان حقاً على « الحاج رمضان » أن ينتهز هذه الفرصة في استخدام « الشاويش عاشور » بعد أن تعمّد ، فهذا شرطىّ عمل في « المحافظة » عشرات السنين ، فله بالضبط والربط خبرة ودُرْبَة ، وفوق هذا كله شارب غليظ مسنون الطرفين يبعث الهيبة والتوقير ، بل إن هذا الشارب وحده كفيل بالإيثار والاختيار ، فمن أولى من ذلك الرجل بمنصب « شيخ الخفراء » ؟ .

لقد تم الاتفاق ... وواعد « الشاويش عاشور » بأن يتقدم من غده ليتسلم عمله ، ولكن الرجل سيقدم غداً لا ليتسلم عملاً ولكن ليصارع ربّ الضيعة بأنه لن يعمل البتة عند أحد ، لا عدول عن ذلك ولا مرجع .

ماله و « للحاج رمضان » وضعته ؟ وماله و « لمشيخة الحفر » ؟ ألا فليدعه الناس لشأنه ، فقد طابت نفسه بانتهاء عمله في « المحافظة » ، وخلف وراءه أشلاء هذه الحياة التاعسة هنالك على باب تلك الجدران العالية البالية في « باب الخلق » ، وهو اليوم يبدأ حياة جديدة في « كفر الشمارية » ، حياة تتسم بطابع الطمأنينة والقنوع ، حيث يعيش هذا النفر الطيب من جيرانه وإخوانه أهل الريف ، فيقضي معهم بعض وقته في مؤانسة وسمر ...

كان حلمه العزيز فيما سلف من أيامه أن يهنأ بعزلة وانعكاف ، خالصاً من التبعات والقيود ، وقد آن له أن يستمتع بتحقيق هذا الحلم في دعة وسكون .

لقد ختم حياته الغابرة ، وما هو بعائد إليها في صورة من صورها على أي حال تكون .

« الشاويش عاشور » مات بالأمس ، بعد أن مات رئيسه « الحاج درويش ... عشماوى المحافظة » ، ولن يُسبَّح ثانياً في صورة شيخ الحفراء طمعاً في الغنم ، أو طلباً للإمرة ، أو التماساً للشهرة ... فهو راض بما

قسم الله له من عيش ، وهو فارغ القلب من شهوات الحياة ونزوات التحكم والسلطان .

يا لها من ذكريات ماضية . . . شدّ ما لاقى من عنت وإرهاق في عمله الحكومى السابق ، ولا سيما في صحبة ذلك « العشماوى » النكيد ، ذلك الذى صبّت عليه الأقدار لعنة الأبد ، فسخرت يده لضرب الرقاب وإزهاق الأرواح !

لقد شعر بالاشمئزاز من هذا الجلاد العتّى منذ التقيا أول مرة ، فاستحکم بينهما عداء . وإنه ليذكر ذلك اللقاء الأول . . . لما ساق إليه الجانى المحكوم عليه بالإعدام ، ونفذ فيه الحكم ، وخلت القاعة من شهود التنفيذ ، تقدم الجلاد فى خطا هينة من « الشاويش عاشور » وجعل يشفّحه بنظرات تومض من تحت جفونه المتراخية ، ثم قال له ساخر باللهجة : ما هذا يا حضرة « الشاويش » ؟ . . . لقد بدا عليك امتقاع وتخاذل ، حتى لقد توهمتُ أنك أنت المحكوم عليه . . . ما نفع هذا الشارب الغليظ ؟ خير لك أن تحلقه .

فهمهم الرجل مخنوق الصوت : ما هذا القول ؟ ماذا تقصد ؟
— لستَ كفئاً للعمل معى فى حجرة المشنقة . . . أقسم لك برأس أبى إن يدك لم تقبض يوماً على سكين لتذبح بها دجاجة .
وشملت « الشاويش » حيرة بالغة ، وغمغم فى تلغم :

كيف ذلك ؟ وما أدراك بي ؟ إن هذا الكلام يسىء إلى سمعتي .
 وأقبل عليه « الحاج درويش » يحدّ نظره إليه ، فازداد الرجل من
 حيرة وارتباك ، فقال الجلاد في لهجة المسيطر : اصدّقنى القول . . .
 هل ذبحت فى حياتك دجاجة ؟ . . . قل ولا تخف . . . اعترف .
 وجمجم « الشاويش » وهو يُزيغ بصره عن الجلاد :
 الحق أنى لم أفعل . . .

— أرايت أن أحدسى لم يخطئ ؟ . . .

وبسط الجلاد يده ، وطفق يُربّت كتف « الشاويش » وهو يقول :
 خليق بك وأنت « شاويش المحافظة » ولك هذا الشارب الغليظ المسنون
 أن تكون شجاع النفس ، لا ترهب منظر إزهاق الأرواح . اذهب فاذبح
 لك دجاجة ، أو على الأقل فرّوجة ، فإن لم تستطع فاحلق شاربك ،
 فأنت به غير جدير !

وانصرف الجلاد من الحجرة رزين الخطوات ، والسبحة بين أصابعه
 ينقل حباتها الضخام ، وذكر الله يتردد على شفّتيه فى وداعة وصفاء .
 وقصد « الشاويش » من فوره إلى حجّرتة الخاصة فى « المحافظة » ،
 أو على الأصح : جُحره المعتم العتيق . . . ومثل أمام حطام من مرآة
 معلقة على الحائط ، ينظر إلى شاربه الغليظ المسنون ، ذلك الرفيق الكريم
 الذى خصه « الشاويش » بالحب والتكريم ، وهذلى فى الحفاوة به وسّعه ،

يضمخه بالدهون ، ولا يألوه من تشذيب وتمشيط ، ويسنّ من طرفيه
في إحكام وإرهاف . . . وأخذ يردد فيه النظر ، وهو يتحسر : أحقاً أنه
غير جدير أن يحمل هذا الشارب العظيم ؟ وما لبث أن امتدت أصابعه
إليه يفتله ، وكأنه يعتذر إليه ويستغفره .

قضى « الشاويش عاشور » يومه في « المحافظة » وأقوال الجلاد
تحاصره . . . ما أشد خجله من حاله المزرية . . . كاد مشهد تنفيذ
الإعدام أمامه يودى به . . . وفي ذلك عار جسيم ، فلزام عليه أن يستدرك
هذا الضعف من نفسه ، وأن يكون كفئاً للمهمة التي يمارسها غير خوّار
ولا هَيُوب .

ومما زاده ضيقاً على ضيقه أنه اعترف للجلاد بأنه لم يذبح دجاجة
في حياته . . . لم يكن أحد يدرى ذلك عنه ، فما باله يذيع سره الخفي ؟ . . .
لا ريب في أنه يعاف الذبح ، ولا يطيق منظر الدم المسفوك ، ويمقت
إزهاق الأرواح كل المقت ، ولكن هذا كله لا يلائم مهمته التي نيّطت
به ، وتعلقت بها رجولته وكرامته . . .

ذكريات مريرة تواردت على مُخَيَّلَةِ الرجل ، كأنها أسراب النحل
تلسعه ، فشق عليه طريقه التَّربُّب غير الممهود ، وهو يتابع سيره عائداً
إلى بلده « كفر الشمارية » بعد أن لقي « الحاج رمضان » ربّ الضيعة ، وقبل
ما عرضه عليه من العمل عنده شيخاً للخبراء .

وما فتئت الذكريات تلاحقه في طريقه . . .

كيف مرت به هذه الأعوام العشرة الأخيرة التي تقضت في صحبة ذلك الجلال العتيّ ، ومن كتب عليهم أن تطيح أعناقهم على مشقته . . . لقد ألف « الشاويش عاشور » عمله ، فزايلته الرهبة ، ولم تعد تفزعه تلك الحجرة الغريبة التي تبدو فيها آلة الشق ساذجة الشكل تافهة المظهر ، بيد أن كراهيته لذلك الجلال لم تهدأ ، بل تزايد أوارها يوماً بعد يوم ، وإنها لكرامية عنجية يخالطها إكبار وتمجيد ، على الرغم من إمعان الجلال في الزاوية به ، والسخرية منه ، ومواجهته في الحين بعد الحين بقوله :

فيم هذا الشارب يا حضرة ، وأنت لا تستطيع ذبح دجاجة ؟
لقد حاول « الشاويش » — مرات بعد مرات — أن يعالج ذبح فرّوجة على سبيل التمرين ، ولكنه باء بالخيبة ، فعوّل على ألا يزاوّل ذلك مرة أخرى ، على الرغم مما يناله من تهكم لذّاع . فقد أصبح كل من تضمهم دار « المحافظة » من موظفين وعمال يتنادرون عليه ، ويتناقلون هذه النكتة العظيمة : « الشاويش عاشور » بجلالة قدره وبالرغم من فخامة شاربه لا يستطيع أن يذبح دجاجة !

وكان على رأس ذلك الجمع الزاخر عامل القهوة « عبد العليم » : رجل أنيق البزّة ، رقيق المنطق ، يتباهى بلباقته وظرفه ، فهو يجيد انتقاء ألفاظه المبرقة ، ويتلفظ بها في نغمات طليّة ، كما يحسن اختيار أثوابه الزاهية ،

ويتفنن في حياكتها على أزياء مختلفة ، ويتردد في أرجاء « المحافظة » متحدثاً إلى الموظفين والزوار في تبختر واختيال . . . وقد اتخذ هذا الرجل من قصة « الشاويش » عاشور لقمة سائغة لا يفتأ يتشدد بها في سخرية معسولة ، ظاهرها لين ورفق وباطنها أشواك كرهوس الحراب ، فهو لا يرحمه من غمزاته ولزاته ، مثيراً حواليه ضجة من التضاحك والصياح ، وكانت سخريته به تلمز حول النكتة الطريفة التي تصور « الشاويش » العظيم الشارب عاجزاً عن أن يذبح دجاجة . . . والعجيب أن « عبد العليم » كان وهو يناوش « الشاويش » بتلك التهكمات يمضي في مزاوله عمله في مظهر مألوف ، وكانت العلاقة بينهما على الرغم من هذا كله تقوم على صفاء زائف مصنوع ، يُؤارى تحته كامن البغضاء .

لم يكن « الشاويش عاشور » في دخيلة نفسه راضياً عن ضعفه ، ولكنه اعتقد أن ذلك قضاء من الله لا مرد له ، وإنه ليدكر أطيافاً شاحبة لحادث وقع له في بواكير صباه ، إذ تقدم لينذبح دجاجة ، وبينما هو آخذ بخناقها ، والسكين في يده يوشك أن يهبط بها على رقبة الدجاجة ، إذا هي تنقلت من بين أصابعه ، وأحس منقارها الحاد يعرض يده ، فصرخ يستغيث ، ولأذت الدجاجة بالفرار ، فلم يعثر لها على أثر . وشعر الصبي بعد حين بأن يده تتورم ، وأن ذراعه يصيبها خدَر ، وقضى أياماً يتوجع ولا تكتحل عيناه بالنوم من شدة الألم ، وكاد الطبيب يأمر بأن

تبتّر يده ، لولا أن لطف الله به ، فشقى من جراحته ، وكان يرى في أحلامه شيخ شيطان مخوف يتمثل له في صورة دجاجة ، وينهاه أن يمس الدجاج يوماً بسوء . . . وتواصلت به الأيام من بعد ، تنسيه هذا الحادث الأليم ، ولكن يده ظلت ذاكرة يقضى لا تبيح له أن يسهّش بها على دجاجة .

تبدّل الآن كل شيء ، فما له وللدجاج وذبح الدجاج . . . لقد اعتزم اليوم أن يعيش ما بقي له من حياة في بلدته الريفية الحبيبة « كفر الشمارنة » مسدلاً ستاراً كثيفاً على ماضيه بخيره وشره ، أما رئيسه « الحاج درويش » الجلال فقد غاله الردى إلى الأبد ، وأما عهده البغيض في « المحافظة » فقد انتشعت عنه أحداثه طاوية معها تلك الزمرة الكريهة من الرؤساء والموظفين والعمال ، ومن بينهم عامل القهوة الخليع « عبد العليم » . . . وإنه ليستمرى اليوم عهداً جديداً خالياً من أسباب التنغيص لا عناء فيه ولا رَهَق .

سيعود غداً إلى « الحاج رمضان » رب الضيعة ، وسيلبغنه أنه يأبى مشيخة الخفر لا محالة .

. . . وبعد أيام ألنى « الشاويش عاشور » نفسه يعمل في ضيعة « الحاج رمضان » شيخاً للخفراء . . . وحاول غير مرة أن يناقش نفسه الحساب ، كيف تم ذلك على غير رضا منه ؟ فلم يكن يخلص من مناقشة

نفسه ومحاسبتها إلا بأن ذلك قضاء مكتوب على جبينه ، وليس ثمة من قوة
تستطيع أن تمحو ما هو مكتوب على الجبين !

لقد عاد يعمل ، وكأنه يراجع عمله القديم ، فهناك مشابه بين
يومه وأمسه ، وليس عمله في مشيخة الخضر إلا امتداداً لعمله حين كان
« شاويش المحافظة » ، حتى رئيسه « عشاوى » الجلاد يراه مبعوثاً إلى
الحياة في إهاب « الحاج رمضان » رب الضيعة .
ما أعجب التشابه بين هذا وذاك . . .

كان « الحاج درويش » الجلاد وديع المظهر ، أنيس المحضر ،
يتقدم مسبل الأجناف إلى المحكوم عليه بالإعدام ، فيسوقه في رفق وتلطف
إلى المشنقة ، كأنه يسوق ضيفاً إلى مأدبة طيبة ، وكان يغطي رأس
ضيفه بقناع يحجب وجهه كأنه يُستَوْجَه تأهباً لحفل بهيج ، ثم يأخذ بمقبض
الآلة التاعسة ، والسبحة لا تفارق يده ، وابتسامة الدعة لا تتخلي عن فمه
ولا يلبث أن يردد : « على الله توكلت . . . » ، ويحرك الآلة في غمضة
عين ، فيتردّى الجسد في الهوة على الفور .

أليس هذا عينه مظهر « الحاج رمضان » في ضيعته ؟ أليس هذا
سلوكه مع من يصب عليهم عذابه ممن يعملون تحت إمرته ؟ أو ليس
شيخ خفرائه « الشاويش عاشور » يقف منه اليوم كما كان يقف بالأمس
وهو « شاويش المحافظة » من رئيسه « عشاوى » الجلاد ؟ ألم يعاود عمله

فما سبق ؟ إنه يقود الجاني أو بالحسرى المحكوم عليه إلى ساحة الدوّار ،
 فيتقدم « الحاج رمضان » رب الضيعة وثيد الخطو ، في قوامه المتكامل
 المكور ، ورأسه الضخم المختفي تحت عمامة محكمة الوضع ، وعينه مسبلة
 الجفن أو تكاد ، والسبيحة في ذراعه معلقة ، وفي يمينه سوط ناعم الملمس
 كلسان الأفعى ، ولا يلبث أن يأمر بطرح الجاني ، ووضع قدميه في
 الفلقة ، وما هي إلا أن يرفع السوط ويهبط به في ضبط وإحكام على نحو
 هين رقيق . . . إنها ضربات معلم أصيل تصيب الأهداف في غير جلبة
 ولا عنف . وبينما يجأر المضروب بالشكوى والتضرع ، يتابع « الحاج
 رمضان » عمله ، والابتسامة الوداعة تتخايل على وجهه المطهّم ، ولسانه
 يلهج باسم الله مستعنياً إياه . . . فإذا انتهى تنفيذ الحكم ، تولى « الشاويش
 عاشور » تسليم المضروب إلى أهله ، والدم يشخب من قدميه ، كما كان
 يفعل من قبل حين يسلم جثة المشنوق إلى ذويه .

يا لبشاعة ما يرى . . . إنه ليحس لهذا الجلاد الحديد ما كان يحسه
 من اشمزاز ومقت للجلاد القديم .

ما أشبه الليلة بالبارحة . . . دنيا اليوم هي عينها دنيا الأمس ، أحداثها
 لم تختلف ، وأناسها هم لا تغيير ولا تبديل .

لكأن القدر يعيد له المأسى الماضية كما كانت ، وإن حاول أن
 يموّها عليه بقناع جديد . . .

ولكأنما كان حتماً أن تستكمل حياته اليوم عناصر حياته بالأمس جميعاً . . . فقد أضيف إليها عنصر لم يكن يخطر ببال « الشاويش عاشور » أن يظهر عوداً على بدء ، ففي ذات يوم ذهب الرجل إلى منظر الضيوف ليراجع « الحاج رمضان » في بعض الأمر ، فواجهه على الفور ضيف يجلس بجوار رب الضيعة ، يحتسى معه القهوة ، ومثل « عاشور » مشدوهاً زائغ البصر ، وصافحت أذنه تلك اللهجة المعسولة التي انطبعت في طوايا ذاكرته لا يمحوها كر الأيام ، فقد سمع الضيف يقول له :

أهلاً بأبي الشوارب . . . مصادفة غريبة . . . كيف أنت يا صاحبي ؟

وألقى الرجل نفسه يرد التحية هزيل الصوت قائلاً :

الحمد لله . . . مرحباً بك .

والتفت « الحاج رمضان » إلى ضيفه يقول له : أتعرفه ؟

فأجاب الضيف في تشدق : كيف لا أعرفه ؟ لقد كنا معاً في « المحافظة » . . . من يجهل « الشاويش عاشور » الرجل الطيب ؟ من ذا الذي يرى شارب العظم المسنون الطرفين ثم ينساه ؟

وهمهم « الشاويش عاشور » يقول : العفو . . . العفو . . .

وواصل الضيف قوله في تلك اللهجة البريئة المظهر : إن « الشاويش عاشور » مثال الرقة والرحمة . . . إنه كالحمامة الوديدة . . . أتصدق أنه لم يذبح في حياته دجاجة ؟

وفقر « الحاج رمضان » فاه ، وعقدت الدهشة لسانه ، وبعد هنيهة
 رفع صوته يتساءل : لم يذبح في حياته دجاجة ؟
 واتجه إلى « عاشور » يقول له : أحقاً ؟
 ولم يملك الرجل إلا أن يجيب : هذا صحيح . . .
 وتعالى الضحكة من أشداق « الحاج رمضان » رب الضيعة ، على
 حين ظل الضيف هادئ القسمة .
 وفي الأيام التالية التي امتدت فيها إقامة عامل القهوة « عبد العليم »
 ضيفاً على « الحاج رمضان » كان يقص على ربّ الضيعة أشتاتاً من النوادر
 والمفاكهات يتناول فيها « عاشور » بلهجته الساخرة المستوبلة ، متظاهراً
 بأنه يتغنى بما اتصف به من رحمة ورقة ولطف .
 وهكذا بُعثت حياة « الشاويش عاشور » السالفة كما هي ، لم يتخلف
 منها شيء .

وارتحل « عبد العليم » عن الضيعة ، تاركاً وراءه مآثر من طيبات
 لا تُنسى ، فقد كشف عن تلك الحقيقة التي يتجلى فيها شيخ الخفراء
 بأنه لم يذبح في حياته دجاجة . وما لبث الخبر أن شاع في الضيعة وذاع ،
 فتناقله الأهلون في دهشة ساخرة ، وشرعوا ينسجون حول هذه الحقيقة
 حواشي مؤشاة ، ويصدرونها بضاعة رائجة إلى القرى المجاورة . . . فلم
 يمض قليل وقت حتى اقتحم الخبر بلدة « كفر الشمارنة » نفسها ، معقل

« الشاويش » الحصين ، وما هي إلا أن فشا فيها كما يفسو الوباء الطارئ ،
وبات الخبر مضغة الأفواه في مجالس السمر ، حتى النسوة كن يتحدثن
به على الجداول وهن يملأن الجرار في الأصائل ، والصَّبِيَّةُ كانوا يتصايحون
بهذه النكتة العجيبة في الغدوات والروحات .

وكان « عاشور » يعلم ذلك كله ، فيرقب الجمع بعين زائغة ، ونفس
منقبضة ، ويحس أن قامته الفارغة تتطامن ، وأن شاربه الضخم المسنون
قد أخذ يتقاصر وينكمش .

إنه منذ هبط الريف يؤثر العزلة ، ويُقلّ التزاور ، ويتجنب مجالس
القوم ، ولكنه الآن وقد شاعت هذه الأحاديث عنه أصبح أشد اعتزالا
للناس ، وأكثر نفورا من اتخاذ الصاحب والخلدين .

لقد ارتسم على وجهه التجهم والتخوف والحذر ، وأخلد إلى الصمت
معظم الوقت ، بيد أنه لم يفكر لحظة في أن يتخلى عن عمله الذي أريد
عليه ، فقد أضحى يعتقد أن كل امرئ خلق في هذه الحياة ليؤدي
ما تفرضه عليه الأقدار دون مناقشة أو اعتراض .

ويوماً وهو يسوق إلى « الحاج رمضان » أحد العصاة لينفذ فيه عقوبة
الضرب ، سمع رب الضيعة يقول له : مالي أراك خائر العزم ، واجف
القلب ؟ ما نفع هذا الشارب الضخم المسنون ؟ خير لك أن تحلقه .
وثارت عاصفة من التضاحك والاستهزاء بين شهود هذا الموقف ،

فأحس الرجل بالدم يغلي في رأسه ، فتلفت حواليه فترة يرى الحاضرين بشواط عينيه ، وما إن وقع بصره على بصر « الحاج رمضان » حتى انتفض في وقفته ، وما أسرع أن حسنى رأسه يردد ألفاظا مهوشة في صوت متخلج هزيل .

وأمضى يومه وهذا المشهد العصيب يحاصره ، وقسوة « الحاج رمضان » تطنّ في سمعه ، ولما أوى إلى داره قصد من فوره إلى ركنه المختار حيث يعلق على الحائط حُطام مرآة ، ومثل أمامها ينظر إلى وجهه على ضوء المصباح الأغبر ، فألقى شاربه متضائلا مبعر الشعرات يعلوه كقام . فحز ذلك في قلبه ، وأقبل على الشارب يضمخه بالدهون ، ويمعن في قتله كل الإمعان .

وفي مستأنف الأيام لم يدع « الحاج رمضان » مناسبة إلا انتهزها للاستهزاء بشيخ الحفراء ، في أسلوب عليه من الملاطفة طلاء . . . وأكثر ما كان يلهب غيظ « عاشور » أن ربّ الضيعة كان يتخذ لمداعباته الثقيلة الواخرة فرصة ازدحام الدّوار بجموع الزّراع ، أو امتلاء منظره الضيوف بمختلف الزوّار ، ولكن الرجل لم يكن يملك إلا أن يلوذ بالصمت ، وربما شارك القوم في التضاحك ، ليعفى ما يضطرم قلبه به من حفيظة وتغيّظ .

وكيف لا يصبر « الحاج رمضان » ربّ الضيعة على أن ينال من

« عاشور » على هذا النحو المزرى به ، وهذا « العاشور » قد أخفى عنه حقائق من شخصيته ذات بال ، فلولا قدوم الضيف « عبد العليم » عامل القهوة ، لما عرف رب الضيعة شيئاً من هذه الحقائق المستورة . ولعله قد آلمه أن ينخدع بما يتحلى به هذا « الشاويش » من شارب ضخيم مسنون ، وبما له من ماضٍ مديد في خدمة الأمن ، فوَلَّاهُ مشيخة الحفراء ، حاسباً أن له من شجاعة النفس وصرامة الطبع ما يؤهله لهذا المنصب الخطير .

وتتابعت الأيام على هذا المنوال . . . « الحاج رمضان » يغلو في السخرية بشيخ خفرائه ، ويندد به ما وسعه أن يندد ، و « عاشور » يزدرد هذه السخریات على مضض ، فتتراكم في حنايا نفسه طيات بعضها فوق بعض ، وتثقل وطأتها عليه .

واستبد الشك بالرجل في كل شيء : في شخصيته ، وفي البيئة التي تحيط به ، وفي الناس الذين يخاطبهم ويخالطونه ، لقد تشابهت عليه الأحداث وتشاكلت ، وامتزجت عنده الحقيقة بالخيال ، وتداخل أمسه في يومه ، فلم يعد يفرق بين الصور والشخصيات والمعلم ، وأصبح لا يرى إلا أعمالاً ونتائج أعمال ، لا تميز فيها بين ماضٍ وحاضر . . .

« ما تنفع هذا الشارب الضخم المسنون ، وأنت من الجبن والخور بحيث لا تستطيع ذبح دجاجة ؟ خير لك أن تحلق شاربك ! »

كأنت هذه الجملة تصك سمع « عاشور » في صباح ومساء ، فإن

ملك النوم عينيه راعته في طائف الأحلام ، كأنها الألم الراتب الدائب
ينبعث من ضرس نخر تغلغل فيه السوس ، فجعل ينشر سمومه في دم
صاحبه ، غير مقطوع ولا ممنوع .

وجاء يوم استدعاه فيه « الحاج رمضان » فلبى دعوته ، وقدم على
منظرة الضيوف وقد غصت بالزوار ، فوجه إليه رب الضيعة ألواناً من
اللون والتعنيف لتقصير كان منه في الضبط والربط ، وما كاد « عاشور »
يدفع التهمة عن نفسه ، ويتبرأ من تقصيره ، حتى انقض عليه اثنان من
الخفراء يأخذان بساعديه ، وخطا إليه « الحاج رمضان » رب الضيعة
خطواته الهينة الرفيعة ، وعلى فمه ابتسامته ، ويداه معقودتان خلف ظهره ،
وقال له في لهجة رخوة لينة : لقد نصحت لك غير مرة أن تحلق شاربك
الذى لا يلائم ما أنت عليه من جبن وخور ، فلم تنتصح . . . فلا حيلة
لي إلا أن أريحك منه .

وفي لمح البصر لمع المقص في يد رب الضيعة ، وسرعان ما اختفى
الشارب ، وتجاوبت أرجاء منظرة الضيوف بالنكات والضحكات . . .
تم ذلك كله في خطفة ، والرجل ذاهل عن أمره لا يكاد يعيه ، فقد
حسب أول وهلة أن « الحاج رمضان » لا ينبغي إلا الدعابة والمزاح ،
ولكنه حين أخلى سبيله ، ومضى في طريقه ، رفع يده دون وعى يتحسس مكان
شاربه ، فلم تصادف أنامله إلا بقايا مبعثرة من ذلك الشارب العتيق ،

كأنها جذور أشجار قُلمتْ أفنانها الفارعة . فتملكت الرجل قشعريرة ، وتلفت حوله ، فألقى الناس يتلاحقون به ويحدقون إليه في شمات ، فحث خطاه يبغى أن تواريه الدار عن العيون .

وما إن احتوته داره حتى أحكم إغلاق بابها خلفه ، وهم أن يتجه إلى ركنه الحبيب ليتطلع إلى وجهه في المرأة ، ويتبين أثر الكارثة التي حلت به ، ولكنه تناقل ، فهمّ ثانية أن يفعل ، ولكنه أحس في أعماق نفسه بحاجز يمنعه أن يتقدم ، فقعده القُرفصاء ، وانسرح يفكر ، ثم قام يلتمس شمعة فيوقدها ذاهباً بها إلى أقصى الفناء ، حيث تقبع هنالك حجرة مهجورة معتمة كأنها جبّ موحش مرهوب ، وكانت هذه الحجرة ملقى للنفايات والمهملات ، ولم يكن « عاشور » يقرّبها إلا ليقذف فيها بما لا حاجة به إليه ، وما وطئتها قدماه منذ هبط الضيعة إلا في الندرة ، إذ كان يرهبها ولا يرتاب في أنها مرتع لأشباح الجن والشياطين .

أشعل الرجل شمعته ، واقتحم بها الحجرة في جراءة نادرة ، ودار بعينه يتبين ما تحوى ، فإذا هو أمام كُومات من الفضّالات والأنقاض عليها غاشية من وحشة قائمة . . . وظل فترة يتفحص أرجاء الجبّ ، ثم تراءت على وجهه ابتسامة بشعة تستمد طابعها من ذلك الوكر الموحش ، ثم غادر الحجرة عائداً إلى الدار ، فتوسطها رافعاً هامته يتحدّى ، وقد برق في عينيه شواظ من نار ، ثم جمجم يُقسم وينذر في عنف واحتداد .

واحتبس في الدار أسبوعين لم يبرحها ساعة من نهار أو ليل ، فإذا طرق الباب طارق أجابه بأنه مريض ، وما كان المرض ليعرف طريقه إلى جسمان الرجل ، ولا سيما في هذه الفترة التي يقضيها حبس الدار ، أسير تفكير عميق ، يدبر خطة نبتت جذورها في رأسه يوم ذهب المقص بشاربه .

ولم يقصر الرجل وقته إبان استخفائه على مجرد التفكير ، ولكنه نشط للعمل ، متخذاً من ذلك الحبّ المهجور مراحاً ومغدى ، فأعمل فيه يد التنظيف والترتيب ، كأنما يعدّه ليكون له مأوى .

ورجع « عاشور » ما انقطع من عمله عند « الحاج رمضان » فمارسه على نحو ما كان يفعل من قبل ، ولوحظ عليه تحول ظاهر في مسلكه وفي خصاله ، فقد زایلته نزعة الاعتزال ، وانخرط في زمرة الناس يدامجهم ويتودد إليهم ويساقبهم صفو الأحاديث ، وكان أول ما قام به حين استأنف عمله أن أقبل على ربّ الضيعة خاشعاً يتوب إليه من الذنب ، ويلتمس السبيل إلى مغفرة ، ويؤدى له فروض الطوع والولاء . وكان فيما بعد إذا داعبه « الحاج رمضان » فأثقل ، وإذا استهزأ به فأزرى ، لم يُبْسَدِ تأففاً ولا تضجراً مما يسمع ، وإنما يتقبل كل ما يقال له وهو واسع الصدر مسامح صفّوح .

فإذا انتهت مهمته في الضيعة آخر النهار ، هرع إلى ذلك الحبّ

المهجور في داره ، يواصل فيه جهده ، ويتابع عمله ، وقد قلص جلبابه ،
وشمر كفيه ... إنه يزيج من الحبّ أحمالاً من التراب المركوم ، وينقل إليه
ألواحاً من الخشب وعوارض بين طوال وقصار .

وتمشت الأريحية في جوانب الرجل ، فأخذ يقيم في داره الحفلات ،
داعياً إليها القريب والبعيد ، عاقداً فيها حلقات الأذكار عن كُتب من
موائد الطعام ، فإذا فرغ الجمع من ذكر الله ، وتناشدوا الأهازيج الرقاق
على نغمات الناي الحنون ، أهدقوا بالموائد يطعمون ويسمرون .

ورطب الناس ألسنتهم بالثناء على « عاشور » يحمدون له هذه
المكرمات ، ويشيدون بما طبعه الله عليه من دماثة الخلق وحلاوة الشمائل ،
فترنحت أعطاف الرجل اغتباطاً بحسن الأحداث ، ولكنه وضع نُصب
عينيّه أن سعادته لا تكتمل حتى يزوره « الحاج رمضان » في داره ،
فيشارك في حلقة الذكر ، ويصيب مما يعدّه له من طعام .

ولانت أخيراً عنجهية ربّ الضيعة ، فقيل الدعوة بعد الحاجة والحاف ،
وبدأت الحفلة مزدهرة متألقة يؤمّها حشد مختار من علية القوم احتواهم
فناء الدار ، ومُدت أسمطة الطعام على حُصر مخططة ذات ألوان ،
وحُجبت سماء الفناء بخيمة تزهو بما وُشيت به من زخارف ، وما كتب
فيها من آيات قرآنية بيّنات ، على حين تدلّت منها مصابيح متوهجة الأنوار
تخطف الأبصار .

ولقى « الحاج رمضان » حفاوة الحشد كله ، وشخصت إليه الأنظار من كل صوب ، وكان أشد الناس احتفاء به صاحب الدعوة ، إذ هياً لضيفه العظيم مكان الصلر ، وأعد له فيه تكريمةً وثيرة الحشايا ليطمئن عايبها في مجلسه ، وكانت هذه التكرمة على هيئة عرش مهيب تلتف به الفارق والوسائد .

أما حلقة الذكر فقد أريد لها هذه المرة أن تُعقد قُبالة الدار في عرض الطريق ، فأحاطت بها جموع غفيرة من الصبية والغلمان في صياح وراح . وبعد حين انتظمت الحلقة ، وانبعثت الأهازيج من الحناجر ، وأخذ الناس يترنحون ويطوِّحون برعوسهم ذات اليمين وذات الشمال ، وتعالى همهماتهم بتمجيد الله ، فتدنيهم من غيبوبة علوية صوفية محببة ، وفي آمية هذا الانسجام الشامل اقترب « عاشور » من « الحاج رمضان » جائئاً على ركبته ، مطأطئاً يقبل يد الضيف العزيز ، قائلاً له : لقد رفعت من قلدى بين الناس بحضورك هذا الحفل ، أعلى الله مقامك ، وأنزلك عنده خير المنازل .

ورفع عينيه مستعظفاً يقول : هلا أكملت فضلك علىّ فأكرمتني بجولة عاجلة في دارى المتواضعة ، حتى تحل عليها البركة ويعمّ فيها الخير ؟ فغمغم « الحاج رمضان » وقد هزته الحفاوة وأسكره المديح :
حُباً وكرامة يا « عاشور » . . . لا أخيب لك رجاءك .

وما عثم أن نهض ، فطاف به مُضيفه في حجرات الدار ، وما إن
أوشك على نهاية المطاف حتى دنا منه يهمس له :

لم يبق يا مولاي إلا ركن العبادة الذى أستاذثر به لنفسى . . .

— أى ركن يا « عاشور » ؟

— إنه شبه زاوية صغيرة أتخذها لصلاتى ونُسكى فى أقصى الفناء .

— شىء عظيم . . .

وسايره إلى ذلك الحبّ المهجور ، فما إن قاربا الباب حتى تقدم منه

« عاشور » يفتحه ، وفى لحظة ابتلعهما الحبّ ، وارتد خلفهما الباب . . .

وبغلة علت صيحة خنقت أصداءها جلبةُ الذكر الجهير ، فلم

يسمع بها أحد . . . وكانت هذه هى الصيحة الوحيدة التى استطاعت أن

تُفْلَت من شقوق الباب .

وأطبقت على الحبّ غاشية من صمت موحش كئيب .

وبعد قليل انفرج الباب ، فخرج منه « عاشور » يسطع على محيَّاه

زهو الانتصار . . .

وحسر لبدته شيئاً عن رأسه ، ومر بسبابته مسرعاً على جبهته ، فتناثر

العرق فى الفضاء . . .

واتخذ الرجل سبيله إلى حجرفته فى صميم الدار ، واتجه إلى ركنه

الحبيب حيث يقوم على الحائط حطام المرأة ، ولم يكن قد عدلَ إلى

هذا الركن منذ أودى المقص بشاربه ، فجعل يتصفح وجهه في المرآة
منتفخاً يعلو صدره ...

لقد نبت « للشاويش عاشور » شارب عجيب لا عهد له به ...
إنه شارب ضخم يطول يَمَنَة وَيَسرة حتى يبلغ جانبي الحجرة ، وإن طرفيه
المسنونين ليتساميان حتى يبلغ كلاهما السقف ...

وأخذ الرجل يطلق الضحكات مجلجلة ، وهو يمعن في قتل الشارب
العظيم ، على حين أخذ الهواء يعاثر باب الحبّ في أقصى فناء الدار ،
حتى فتحه على مصراعيه ... فبدأ على الأثر مشهد يبعث الروح :
مشقة كاملة العدة ، أقيمت في وسط الحبّ ، يترجح عليها جثمان
« الحاج رمضان » !

الحمراء

عرفتُ « الحمراء » منذ عشرين عاماً أو يزيد . . .
عرفتها يوم حلتُ قرية « فلوزيل » السويسرية في حِضْن الجبل ،
أبتغى الشفاء في مصحاتها من مرض صدرىّ كاد يودى بي .
وهذه « الحمراء » امرأة فرنسية المنبت ، إلى القيصَر أميل ، وإلى
الامتلاء أقرب . . . ولا يبرح خلكدى حتى اليوم شبّحها في لبسة السواد
لا تكاد تستبدل بها سواها ، وهى تغدو ناشطة فى متجرها وتروح ،
وقد تَوَجَّ رأسها شعر يتوهج فى صبغته الحمراء ، وانبعثت من عينيها
الضيقَتين نظرات تطلع وفضول ، وعلى وجهها المظهُم العريض يتجلى
إشراق . . .

ما تكاد تلمح قادماً على المتجر ، حتى تقبل عليه ، وقد ملأت
يديها ببعض ما لديها من طوائف السلع ، وانطلق لسانها فى حديث يأخذ
بعضه برقاب بعض ، ترصّعه بابتسامات عذاب ، وضحكات رقاق ،
وفنون من الإشارة والإيماء تثير البهجة والائتناس .
وهيات لك أن تَرِيم متجرها إلا وقد تأبطت رِزمة لم يكن يخطر ببالك

أن تبتاع مما حوت شيئاً ، ولا تلبث بعد أن تغادر المتجر وقد ذهب عنك
 سحره أن تستفيق دهشاً تسائل نفسك : كيف جاز عليك أن تنفق
 ما أنفقت في شراء هذه الأخطا من قطع الحلوى وصناديق البخت والأقلام
 الملونة وما إليها من لعب الصغار ؟

ولعلك تترصد لأول طارئ عليك من الأطفال ، لتتخفف مما
 تحمل . . . فتلقى به إليه في سخاوة وارتياح !

على أنك مع هذا ربما بقيت على شوق إلى غدك ، وإذا أنت منساق
 إلى المتجر تصافح « الحمراء » ، وتستمتع إلى حديثها الفياض ،
 ولا تنصرف عنها إلا متأبطاً رزمتك من توافه الأشياء .

أضافتنى قرية « فلوزيل » قُرابة عام ، كنت خلاله أختلف إلى
 متجر « الحمراء » حيناً بعد حين . . .

وفصلت عن القرية عائداً إلى الوطن ، أحمد لها ما أفادت عليّ من
 عافية . . .

وكلما قصدت إلى « سويسرة » على تعاقب الأسياف ، جعلت من
 همّي أن أصعد إلى تلك القرية الجبلية أحيي فيها بعض الذكريات ،
 وأزور بعض الأصدقاء ، وفي طليعتهم صاحبتنا « الحمراء » !

في متجرها الرشيق أجلس ساعة ، وهي من حولي تطوف ولا تفتأ
 تطوف ، كأنها النحلة الخفاقة : ضحكاتها تجلجل ، وروحها يشيع

المراح . . . وأنا في جلستي أتصفح مرأى ذلك العام الهادئ الوادع الذي قضيته في هذه القرية مستشفياً أنشد لصدرى النقاء والصفاء !

كانت حياتي في ذلك العام ساكنة رخيّة ، ليس فيها من مظاهر الحركة والنشاط إلا متعجر « الحمراء » ، وكان بيت القصيد فيه طفلاً لا يعدو الخمس ، أزرق العين ، رنان الصوت ، لا يدلف إلى المتعجر ويجول فيه ، حتى يمرق منه إلى الطريق في جلبه وضعيج ، وهو يتقفر بعجلته الخشبية على أديم الأرض ، فتنبعث لها قعقعة موصولة . . . و « الحمراء » تستبّعه نظرة حنان ، ولا تغم أن تميل على قائلة : معذرة يا سيدى . . . إنه كثير الصخب ، ولكنه طيب القلب . . . كأبيه !

وما هي إلا أن تنهد ، وتستأنف القول محزونة النبرات : كلما سمعت صوته الحاد ، وشهدت عينه الزرقاء ، ذكرت الراحل . . . أباه !

وتهم بنظراتها في الفضاء ، كأنها ترتاد مجاهل الآفاق . . . ولكن سرعان ما تنجاب عن محيّاها سحابة الاكتئاب ، وتعاودها نشطتها المرحّة ، فتقبل على السلع تعرضها في حديث طلق أخاذ .

هجرت « الحمراء » موطنها الفرنسي ، طوعاً لحاجة زوجها إلى الاستشفاء في قرية « فلوزيل » ، وهي يومئذ ذات حمل . . . وشدّ ما عانت من مشقات ومصاعب في بادئ الأمر ، فإن عبء الإنفاق كان على كتفها كله . . . ولم تجد بداً من أن تتجر ، فأنشأت ذلك الحانوت

برأس مال هو صفوة ما ادخرت هي وزوجها فيما سلف .
 ووضعت « الحمراء » طفلها ، ولم يكن ليشبط عزيمتها في العمل ،
 بل لقد زادها إقبالا وهمة . . . وكيف تتوانى في السعي ، وقد وكلت
 الأقدار إليها رعاية عزيزين : زوج يُشغى على الهلاك ، وطفل جاءها
 بعد طول انتظار .

وربحت تجارة « الحمراء » . . .

وكان موت الزوج بعد ذلك قميئاً أن يفث في عضدها ، ويقوِّض
 صرح تجارتها ، ويردها إلى موطنها الفرنسي . . . ولكن نظرات هذا
 الطفل الأزرق العينين ، وابتهاماته البهيجة الوضيئة ، كانت تقتضيها
 أن تدأب في السعي ، وتواصل الكفاح ، ولا تبرح قرية الاستشفاء ،
 تأمينا لصحة الرضيع ، خشية أن يعدو عليه داء أبيه . . . وكذلك
 استجابت المرأة لهذا النداء ، فاستقرت في القرية تعمل ، وأقبلت على
 طفلها تكفله ، فشب سليم الجسم ، مُبَرَّراً من الأوصاب !

واطمأنت « الحمراء » بهذه الحياة التي أسبغت على الطفل نماء
 وعافية ، ورضيت عن هذا المتجر الذي يدرّ عليها الرزق الطيب والكسب
 الموفور ، فلم يدر ببالها أن تبارح هذه القرية ، بل لقد قرّ في وليجة
 نفسها أن نجاة هذا الطفل مرهونة بالبقاء فيها ، فاتخذت منها وطناً .
 وعاشت « الحمراء » لطفلها . . . كان هو محور آمالها في الحياة ،

تلمح فيه رجل المستقبل في البيت والمتجر ، وتؤمل منه أن يكون لها في الشيخوخة عوضاً عن أبيه : يحمل عنها ثقل العيش ، وبه تستند إلى خير معوان .

وكنت كلما توخيت الحانوت ، في زوراقى للقرية ، أشهد الطفل يزكو ويتعرع ، حتى شبّ شبابه ، بيد أن سماته وشمائله لم تكن تفارقها تلك الطفولة العابثة اللاهية . . . فهو يقتحم المتجر وينصرف عنه في هرج ومرج ، وهو أبداً صيّاخ ضحك ، وهو مراح لا يبالي ما يفعل ، ولا ينحاش عن شيء .

وقد مارس الرياضة فشغفته حباً ، وما زال يتفنن فيها حتى ظفر في القرية بأسنى جوائز الانزلاق ، وأصبح بطله فيها غير منازع .

ولا أنسى كيف كان يضافحني إذا بسطت له يدي ، فقد كان يعصر كفي بقوة ، كأنما يريد أن يشعرني بمبلغ فتوته وشدته . . . وأمه قُبّالته تتوسمه بعين فيها وميض الزهو والاعتزاز . ولا تلبث أن تفيض في الشغى بمزايه الرياضية ، والإشادة بشجاعته وإقدامه ، فيقطع حديثها بالضحك عملاً شديقه ، ويبعث صلصلته عالية الرنين ، ثم يشير إلى بساباته قائلاً في توكيد : لا تصدق يا سيدى . . . إن هذه السيدة تغلو في حبها لابنها ، فلا تدري ما تقول !

ويَسْمِل على أمه ، آخذاً بكتفها ، وهو يقول : يا الله . . . شدّ ما أنت

رائعة الجمال في هذا الشعر الأحمر القاني ! شدمًا أنت أنيقة في
هذا الثوب الأسود اللماح !

ويختطف من خدها قبلة صاحبة ، ثم يسلم قدميه للطريق في خفة
ونزق . . .

تواردت الأعوام على الفتى حتى أينع ، وآن للرجولة أن تستقبله ،
وهو على حاله ليس له من هم إلا تزجية الوقت وتلهية النفس وممارسة
الرياضات ، فإذا سئلت أمه :

لأى غد أعدت ولدها ؟ وأى مصير ينتهى إليه ؟

أجابت في طمأنينة وأمان : لقد تعلم ما فيه الكفاية . . . وإن لم
ينل إجازة ! . . . حسبه ميراث الذكاء من أبيه . . . وإنه لقائم في
غد مقام أبيه . . . لسوف يحمل عنى عبء البيت والمتجر معاً . . . دعه
في مراح الطفولة بعض وقت . . . وما زالت في بقية !

كذلك كان يحيا في تلك القرية فتى « الحمراء » . . .

وهبت ريح الحرب العالمية الثانية ، فألزمتنى مقامى في « مصر »
سبع سنين ، فلما صحا الجو ، وتمهّد الطريق ، أزمعت الارتحال إلى
« سويسرة » على لطفة وشوق . . . وصعدت من فورى إلى الجبل ، ألتبس
زيارة « الحمراء » في قرية « فلوزيل » . . .

وإذ أبلغنى القطار باب المحطة ، نزلتُ إلى ظلة الصحف أجادب

صاحبها الحديث في بعض شئون القرية وأهلها ، وكان لى به سابق عهد ،
 فعرفت منه أن الحياة ثمة كما هى ، وأن صاحبة الحانوت على حالها فى
 الحانوت ، ولكن كارثة نزلت بها منذ أشهر قلال . . .

— ماذا ألم بها ؟

— قضى ابنها . . .

فصحت مأخوذاً : كيف ؟

— أودى به حادث انزلاق فى مباريات الشتاء المنصرم .

وأدبرت عن الرجل تخطو بى قدمى فى القرية خطوات قلقة ، وإذا
 أنا تتراعى لى غمامة دكناء تسبل سترها على الأفق المشمس ، فتطمس
 نوره ، وتغيض بهجته ، وتضفى عليه الجهمامة والعبوس .

وكاد يردنى عن المضى هاجس مر بنفسى . . . إنى لم أقصد هذه
 القرية إلا لزيارة « الحمراء » ، وهى اليوم فى شغل بمصاها عن سائر
 الناس . . . فيم زيارتى إياها ؟ ماذا أنا قائل لها ؟ ما أزهدى فى تلك الجلسة
 الكتيبة التى تضمنى وإياها حين أقبل عليها الساعة !

ورجعت إلى المحطة ، أستدرك القطار فى أوبته ، وهناك فى حجرة
 الانتظار ظلت أذرع أرضها ، والأفكار تهيم بى فى كل واد .

يا للقدر فيما يدبر من غرائب وعجائب ! . . . هذه أم لم تكن تعيش
 إلا من أجل ولدها ، أحسنت القيام عليه ، والتعهد له ، حتى غدا كالفضل :

صُلب العود ، متين القوى ، لا يشكو بأساً ، ولا تَتَسَخَّوْنُهُ علة ؛
 وفي لحظة نكراء ترى نفسها قد فقدته آخر الأبد . . . تلك امرأة
 عانت في سبيل ولدها ما عانت ، إذ هجرت وطنها الفرنسي ، ورضيت
 بالبقاء في جوار المرضى وأنصاف الموتى من نزلاء هذه القرية ، زادها
 كله في هذه الحياة بسمه ولدها حين يبتسم ، وبهجته حين يبتهج ،
 وضجته حين يغدو ويروح . . . فإذا هي صفر اليدين منه ، تفقد بفقدانه
 ما كان لها من زاد الحياة ! أننى لها أن تعيش بعده ؟ وكيف يطيب لها
 المقام في بلد شهدت فيه مصرع حبیبها الغالين : زوجها من قبل ،
 وولدها من بعد ؟

وألفيتُ قديمي تَرْجِيَانِ بي ، فوجدتني أنتحي متجر « الحمراء » ...
 ودخلت الخانوت وثيد الخطا ، فتلقنتي سيدته تصافحني في مودة ، وهي
 تقول : طال مغيبك يا سيدى !

— هي الحرب . . . لم تدع لنا من سبيل .

— الحرب . . . ما أقساها ! . . . عشنا في حرّها زمنًا ، وإن لم
 تمسنا نارها . . .

وظفقت المرأة تتحدث إلى ، فيما كابדתه البلاد السويسرية أثناء
 تلك الحرب الشعواء .

وكانت « الحمراء » فيما تبدو لعين الرائي كما هي لم يطرأ عليها كبير

تغير... شعرها ما برح في صبغته الأرجوانية يتوهج ، وإن توضحت فيه بعض شعرات علاهن المشيب ، ولبسوها الأسود كما عهدتها به ، وإن فارقه شيء من أناقته... وهذا الوجه المطهَّم العريض هو وجهها ، وإن عرفت سبيلها إلى صفحته الغضون . وحديثها ما برح محتفظاً بلهجته ونبرته ، وإن سرى في صوتها كد وإعياء .

وقامت على مألوف عاداتها تريني ألواناً من سلع المتجر... فراغني أنى لا أرى إلا حُثالات عفراء تقادمت عليها الأيام . وما كادت تقترب منى ، وبين يديها السلع ، حتى تعثرت ، وأوشكت أن تهوى . فمجلتُ إليها أقبلها من عثارها ، فلم تكد تحس يدى ، وأنا آخذ بساعدها ، حتى أمسكتُ بها تشدّ عليها ، وفجأة أطرقت تغطى وجهها بيمينها ، وانطلقت تتعجب ، ويعلو لها نسيج .

ووجدتني معقول اللسان ، لا أملك أن أنبس... وكل ما كان منى أنى أقبلت عليها أربت كتفها ، كما لأطف طفلاً جريح النفس ، متهيف الجناح ! وأجلستها على كرسى ، وأخذت مكانى منها على مقربة ، ولما ذهب عنها الروع ، وخف النسيج ، قالت مهممة ، ويدها تمسح بقايا الدمع في مآقيها : معذرة يا سيدى... لعلك لا تعلم أنى فقدت... فعاجلتها بقولى : علمت كل شيء... تشجعى يا سيدتى ، وثقى برحمة الله !

— نعم . . . نعم . . .

وأمسكتُ عن الكلام هنيهة ، ثم جعلت تسوَّى من شعرها ما تشعث ،
وتعالج أن تظهر في بشاشة وتطلق ، وعادت إلى سلعها تُميط عنها الغبار ،
وترجع إليها ما لها من بهاء . واستطردت تتحدث إلى شكولا من الأحاديث ،
وهي تتكلف عبثاً أن تكون كما كانت من قبل : لبقة الحديث ،
مأنوسة الدعابة ، موفورة التسلية !

وما هي إلا فترة حتى أحسست بأني أسارع إلى إنقاذ الموقف ،
فأسترسل في الكلام ، محاولاً ما وسعني أن أحاول التلطف في الحديث ،
طلباً للترفيه والإيناس . وفي أثناء التحدث ، كانت « الحمراء » تطلق
بعض ضحكات خفيف ، أذكرتني ملامح من ذلك الماضي الغابر ،
ماضيها حين كانت خيلواً من الهم ، ذات قلب طروب !

وأطبقت يدي على يد « الحمراء » أهرها مودعا في تحنن وإشفاق ،
وتركت الحانوت حاملا ما اشتريته من السلع التوفاه ، وأنا أحث إلى
محطة القطار ساقى .

. . . عامان مضيا . . . لم أقصد فيهما « سويسرة » ، وفي صيف
عامي الثالث أقبلتُ عليها إقبال مشوق ، فكان أول شيء انبعثت له
نفسى هو الإلمام « بالحمراء » في معقلها الأشم
فلما أسلمني القطار إلى ظلة الصحف ، ابتدرت صاحبها أسأله :

ما مبلغ علمك « بالحمراء » ؟

وكأنما كنت أخشى أن أسمع منه ما يسوء ، وكأنه قرأ في وجهي
ما كنت أخشى ، فبدت على حيّاه ابتسامة فيها تخابث ، وهو يجيب :
لا تخش على صديقتك بأساً ... ما زالت حيةً تسعى ! ... إنها
ماكنة في القرية ، حتى تشيع أهلها جميعاً إلى الأحداث !
وعدلتُ عن الظلة ، يتبعني منه رنين ضحك بغيض ...

وتوجهت من فوري إلى الحانوت ، فصادفته مغلقاً ، وأسعفتني
الذاكرة بأن اليوم يوم « الأحد » ، فيممت نحو كوخها ، في أطراف
القرية ، وضغطت زرّ الجرس ، فلم يخطئ سمعي خفق قدميها وهي
قادمة تفتح الباب ، وفوجئتُ بي ، فصاحت تحييني متهلة ، وشدّت
على يدي تقول : ما أوفاك من صديق ... أنت لا تنسى عهد الصحبة ،
وإن تباعدت الأيام !

فقلت ، وأنا أرنو إليها أتفحص : وهل ينسى المرء صديقة مثلك ؟
ورافقتني إلى مجلس الدار ، وقربتُ لي مقعداً فيه ، ثم قدمت إليّ
كوباً من عصير الفاكهة ، وأخذت مكانها عن كُثْب مني ، تسبغ عليّ
من شؤون القرية وأنباء أهلها في لهجة أنيسة محببة .

راعني من « الحمراء » أنى وجدتها تستعيد مظهرها القديم : من
بشاشة في الوجه ، وتأنق في الزى ، وتوهج في شعرها الأرجواني ... ولولا

ما تعقد على صفحة وجهها المطهَّم من غضون، وما أدرك قَوامها الممتلىء
 من ترهل، لما أنكر أحد شيئاً من « حمراء » الزمن الخالى !
 وأبحت لعيني أن تجول فى أرجاء المجلس ، فطالعتنى صور تتباين
 أوضاعها وعهودها لعميدى الأسرة : الأب وفتاه ! . . . وإن بعض هذه
 الصور ليتجلى ملوناً زاهياً فى إطارات رفيعة هى أثمن ما فى المكان من
 متاع .

ونفضت « الحمراء » تقول :

هذا يوم الزورة الأسبوعية للمقبرة . . . أتكون معى ؟

— إذا راقك أن أكون !

— لن يذهب وقتك عبثاً . . . فهناك لا ريب أصدقاء لك سيشعرون

حتماً بأنك سميت إليهم تزور . . .

فأثار قولها شجنى ، وقلت : كيف ؟

فحدقت إلىّ تقول : أأست معقداً أن الأرواح تحوم هنالك

لتتعرف وجوه الزائرين ؟

فغمغمت أجيب : مهما يكن من أمر ، فإنى مصاحبك فى
 زيارتك ، وإنه ليطيب لى أن أزور القبور ، أحسّ ساكنوها بى أو لم
 يحسوا . . .

فصلبت عودها ، وأحدثت نظرها فىّ تقول : كن على يقين أنهم

يحبسون بنا ، وأنهم يروننا ، ولكن لهم طابعاً خاصاً في الرؤية والإحساس . .
طابعاً يلائم طبيعة تلك الأرواح .

وكانت منها سكتة وإطراق ، ثم علت برأسها شاردة النظر ، تواصل
قولها : لم يخب ظني في كل مرة زرت فيها قبر العزيزين . . . لقد استشعرتُ
وجودهما من حولى ، وإني من ذلك على ثقة ويقين ، ولو أوتيتُ موهبة
القدّيسين الأطهار لثم بيني وبينهما لقاء ، ولدار بيني وبينهما حديث !
وما أوشكنا أن نبارح الكوخ ، حتى رأيت « الحمراء » تتوخي جانب
المرأة ، فتمقف قبالتها تسوى شعرها ، وتصلح هندامها ، ولم تنس أن تختم
زينتها بنفحة من عطر وادع رقيق . . . وقالت وهى تدلف كالكرة
خارجة : كان ولدى كثيراً ما يقول لى : « شدمّا أنت رائعة فى هذا
الشعر الأحمر القانى . . . شدمّا أنت أنيقة فى هذا الثوب الأسود
اللمّاح ! . . . »

وابتسمت مستأنفة قولها : ألا تجدنى فى مظهرى هذا جديرة بلقائه ؟ . .
فلاطفت كتفها وأنا أجيبها :

ما كنت فى مظهرك يوماً محتاجة إلى مزيد من عناية واحتفال !
وخرجنا إلى الطريق ننحدر منه إلى مسلك خطته الأقدام فى المَرَج
الفيّاح . . . مسلك قصير المدى ، يكاد يخلو من السابلة .
وكانت « الحمراء » تساورنى وهى تصعّد فى الطريق ، متساوقة

الخطا ، ضاربة بعصاها أديم الأرض . . .

وانبعثت تحدثني عن ولدها في استفاضة وانتفاضة . . . إنها لتصفه
لى ، وإنها لتقص على من أخباره التافه والطريف ، كأتى لم أره ، وكأتى
لم أعرف من أمره أى شىء ظلت تسرد على أحداث صباه ،
وأطوار شبابه ، دون ترتيب ولا تنسيق ، غير متحرزة من التكرار
والاستطراد

وما كانت تؤكده في وصف فتاها الراحل قولها : ما كان أجمله من
قى أزرق العينين . . . كأييه . . . يتوقد ذكاء وألمعية . . . كأييه !
وكذلك كانت تردد قولها : ما كان أشد فتوته وقوته . . . لو أراد
اقتلاع شجرة من جذورها لما خانته يده . . . كأييه !

وشارفنا ساحة المقابر ، فلمحتها على ربوة مزدهرة حالية بالريحان ،
يدور حولها سياج ساذج من فروع الشجر .

وأقبلنا داخلين ، فراعنى أن صفائح القبور تختلط بالشجيرات
والأزاهير ، فكأنها مزاج من نبت الطبيعة على ظهر الأرض . . .

وأدنتنى « الحمراء » من قبر على ذروته لوحان ، وألفيتها قد اتخذت
منه قبلة ركعت تسجدها في تخشع لحظات ، ثم جلسنا معا على صفة
أمام الضريح ، نستغرق في تيار الأحلام . . .

وبقينا حيناً في هذا الصمت العميق ، كلانا يستثير ما في ماضيه

من ذكريات غالية ، ويستعيد ما له من أطيايف عزيزة بعيدة ، ويستدنى من عالم الغيب تلك الأرواح الكريمة عليه ، يبثها صفو المناجاة .

ثم نهضنا . . . أنا و « الحمراء » . . . نهضنا خفيفين نشيطين ، يسرى في أوصالنا مرح نفسى ، ويزنا طرب رُوحانى ، وقد تمثلت لنا الدنيا من حولنا باعثةً كلها على طمأنينة ورضا .

ورجعنا أدراجنا ، يسيل بنا المَرَج الفياح إلى الكوخ ، وكل منا خال إلى نصيبه من روعة تلك الزورة ، يستمتع به فى صمت وهدوء . . .

ولما انتهى بنا السير إلى باب الكوخ ، أخذت بيد « الحمراء » أشدَّ عليها مودّعاً ، وأنا أقول : أشكر لك من أعماق قلبي حفاتك بى ، وما يسّرت لى من متعة طيبة . . . لقد أتحت لى أن أنتقل إلى عالم حبيب إلى نفسى ! . . . سأراك فى الصيف المقبل ، لو قد رلى أن أعود !

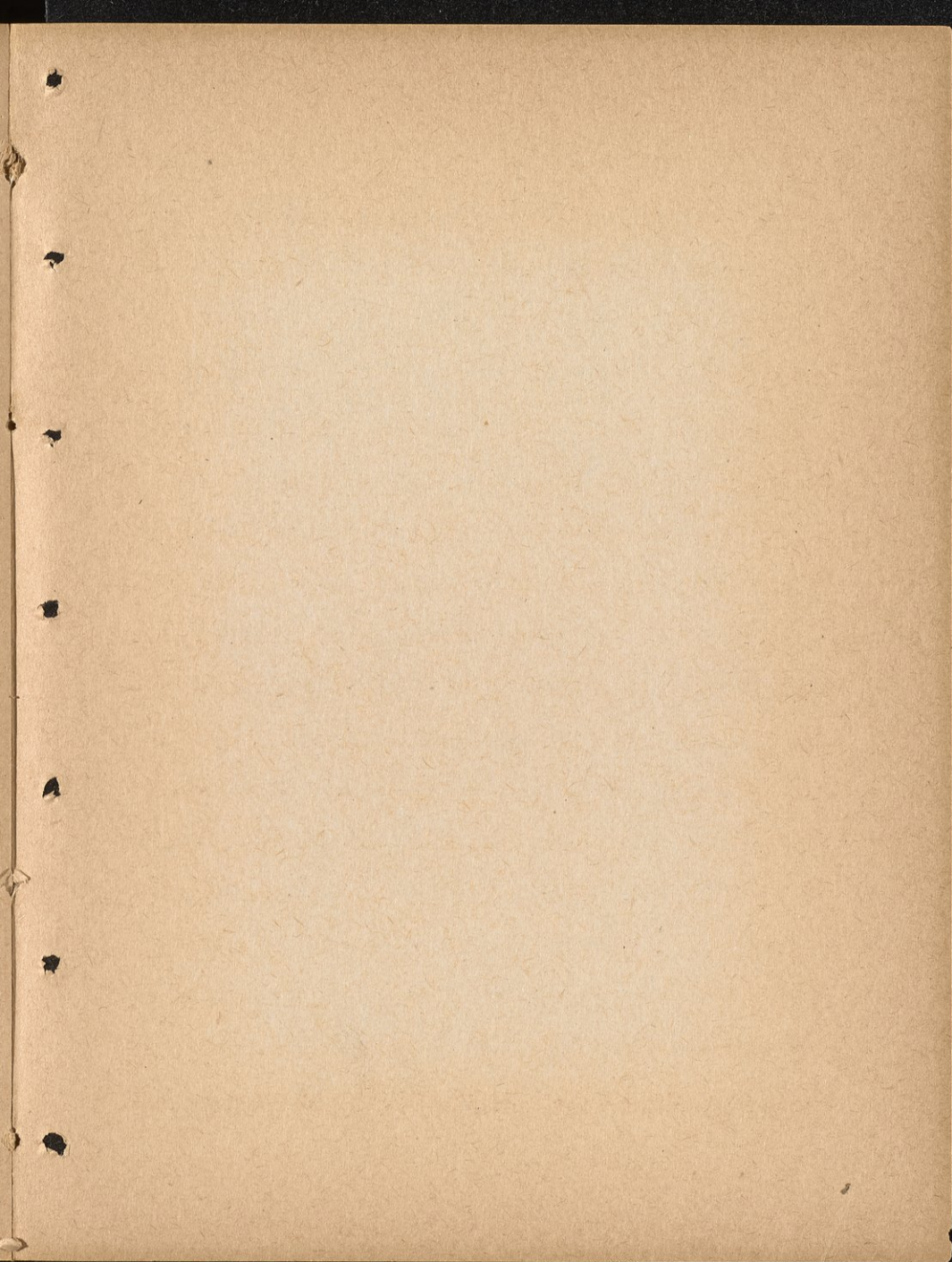
— إن كتب لى عمر ، فستجدنى هنا . . . هنا على الدوام . . . هنا فى هذه القرية العزيزة !

وقطعتُ الطريق إلى محطة القطار ، تسوقى ألوان من التأمّلات . . .

حين قدمتُ هذه القرية منذ قليل كنت أعجب من أمر « الحمراء » : كيف لا تبرحها ، ولم يبق لها فى أرجائها من شىء ؟ !

والآن وأنا أغادر القرية أحدث نفسى : كيف تستطيع « الحمراء »

أن تبارح قريتها ، ولها فيها كل شىء ؟ !



الديال

— امش يا كلب ...

نطق الرجل بهذه الجملة ، وهو يعبر الطريق ، حين ضرب بقدمه
يركل هساة آدمية ، أو قل : مِرْزَقة بشرية ، أعنى حُطام صَبِيٍّ ...
لقد ركل الرجل هذه الهنأة إذ أحس بها تماس ساقه ، تنشد أن
تستريح إليها نظره ، لكي تظفر منه بصَدَقة .

واستقبلت المِرْزَقة هذه الركلة ، عوضاً عما أملت من معروف .
وما لبثت أن تراجعت زاحفة على الطَّوار تجرّ ساقها العجفاوين اللتين
أعجزهما الشلل ، وهى تحاول فى زحفها على أديم الأرض أن تحمى
نفسها من أقدام السالكين ، متخذة لها ملاذاً من ركن صغير فى جدار
إحدى الشواهي .

اخرس يا كلب ...

ابعد يا كلب ...

امش يا كلب ...

تلك هى العبارات البليانية المختلفة ، التى كانت تتمثل فيها بلاغة

الناس ، يجيبون بها تلك المزقة البشرية ، كلما همت أن تدنو من مواطنهم أقدامهم على مسدّ رَجّة الطريق .

ولم تكن المَزَقَةُ البشرية تستبطن لهذه الجمل من مغزى ، أو تستكنه لها من مدلول . على الرغم من أنها أَلِفَتَ سماعها مرات تفوت الإحصاء ... كل ما كانت تدركه من معناها أنها أمرٌ إليها بالتحنى ، وتحذير لها من الاقتراب .

ما للمِزَقَةِ وللكلب تَقَرُّنٌ معه ، وتوصف به ؟ إنها لتعرف أن البون جدّ شاسع بينها وبين ذلك الحيوان الذى يتخذ القوم اسمه نعتاً من نعوت المسبة والتحقير والإصغار .

الكلب ! ... من أين لتلك الهناة منزلة الكلاب ، على اختلاف حظوظها فى مضطرب الحياة ، وفى مجتمع البشر ؟

الكلب ! ... إنه فى أبخس حظوظه ، وأهون منازل ، حيوان ضال تتقاذفه الأزقة والدروب ، تراه عادياً يتلفت فى دعر ، وذيله مستخفٍ بين فخذيه . وإنه فى هذه المنزلة الهيئته ، وذلك الحظ البخس ، لأرفع من تلك المَزَقَةُ البشرية شأنًا ، وأهناً حالا .

للكلب قوائم أربع يفر بها من طالبه ، فينجو بها من الأذى ، ويسلم من الشر . وله فروة تقيه مضرة الأجواء حين يشتو وحين يصيف . وقد أوتى من القدرة والقوة ما يستطيع به الصراع فى سبيل العيش .

وهذه الطبيعة أتاحت له أن يحصل على القوت في شئ من اليسر .
 فأما المزرقة البشرية ، فماذا لها من حول وطول ؟ وماذا لها من وسيلة
 وحيلة ؟ هاتان ساقان مشلولتان ، كأنهما بعض جثة هامدة تشبث
 بالجدس الحى فتكون عبئاً عليه . وتلك أسمال مهلهلة لا تُظَل في صيف
 ولا تدفئ في شتاء ، بل إنها لتكاد تكشف عن سوء تنبو عنها العيون .
 وليس لتلك المزرقة البشرية من علائم الحيوية ، ودلائل القوة ، إلا أنفاس
 تتردد في ذلك القفص الهش الذى يَعيث فيه سوس الداء . . .

امش يا كلب .

ابعد يا كلب .

اخرس يا كلب .

كانت هذه الحمل تتناثر من أفواه المارة جملة بعد جملة ، فتتجمع
 ثقيلة الوطأة على سمع المزرقة البشرية الزاحفة ، فلا تلبث أن تحملها إلى
 قاعدتها في أسفل الجدار العالى ، لتستقر هنالك ريثما تلوح لها فرصة
 القيام بزحف جديد .

هذا الركن يحتويها منذ عام أو فوق عام ، وهو محلها المختار الذى
 يكفل لها الطمأنينة والأمن ، إنه شبه فجوة تتجافى عن الأنظار ،
 وإنه لقريب من الطريق الحى العامر بالصادرين والورّاد في ليل ونهار ،
 وإنه ليكفيها مثونة السعى في استجداء القوت وطلب الرزق من هنا وهناك .

والمزقة البشرية في مستقرها العتيد ، على مقربة من مطعم أثيق على الطريقة الأمريكية ، فيه يلتهم الرُّوَّاد طعامهم وهم وقوف متعجلون ، وهو منذ الصباح إلى منتصف الليل سوق حافلة بالناس . . . لم يكن هذا المطعم وفقاً على من يحمل الدرهم والدينار ، وإنما كان فيه متسع لمن يحملون بدلا من الدينار والدرهم مزايا نفسية ، ومواهب شخصية ، أولئك هم الذين يحسنون التلقط للفئات والمهمل ، ولا تعاف أنفسهم البقايا والفضلات ، فإن أقلت من هؤلاء العفاة شيء ، تلقفته فئة أخرى من ذوات الأربع السارية تشتم الأرجاء والأنحاء ، فلا تُسبِّقني في أرض المطعم على فتات لكانس .

وما أقل نصيب المزقة البشرية من هذه الوليمة الدائمة الموصولة على طول الترقب . . . وكيف لها أن يتوافر نصيبها في مزدحم يزخر بالخاطف واللاقف والمتلقط من إنسان وحيوان ؟ إنها لتقتنع من الغنيمة بما زهدت فيه الأيدي ، وما عفت عنه الأنوف . . . وما كانت قناعتهما عن رضاً وطواعية ، ولكن لا بد مما ليس منه بد .

ولطالما قبعت تلك المزقة البشرية في شِقِّها الأمين تتأمل ما يحيط بها من مظاهر الحياة ، فإذا هي تسبح في تيار من الأخيلة والأحلام . عظيم ما تقع عليه عينها من شئون وأشياء ، وهو منها قريب التناول جدّ قريب . بل إنها هي جزء من محيطه ، ولكن أين هي من تلك

الأشياء والشئون التي تراها رأى العين ، وتصبح فيها وتمسى يوماً بعد يوم ؟
 إن المُرقة لتحس بأن بينها وبين الحياة المحدقة بها حجازاً من زجاج
 يَشِيف ولا يُنِيل . فإن هي خُدعت لحظة بشفوفه ، فأرادت أن تنفذ
 منه ، صدتها العوائق والأسداد ، وردتها إلى مستقرها الخالد ، وكشفت
 لها عن حقيقة خاصة بها لا خُدعة فيها ولا غفلة ، تلك هي أن كل
 ما يترأى لها من مشاهد الحياة عن كُثب منها ليس إلا أوهاماً وخيالات
 وأساطير .

ترسّبت هذه الفكرة في أعماق المُرقة البشرية ، واختلطت بنسيجها
 المهلهل ، فلم تعد نفسها تسوّل لها أن تطمع في شيء من ذلك المتاع
 الذي يتجلى للعيون على مسرح الحياة . وعلى مر الأيام ران عليها صداً
 ذلك الاستسلام ، فأنتهى بها إلى تبلد وجهود .

هذه الحياة العجيبة التي تتوالى أطيافها في الطريق ، وخلف
 النوافذ . . . هذا اللون البهيج من الترف والرفاهة في مأكل ومشرب وملبس . . .
 تلك الأضواء الألافة والأوضاع الرائعة . . . ذلك الإشراق الذي يفيض
 على مختلف الأشياء من حيّ وجامد . . . كل ذلك تتملاه المُرقة البشرية ،
 وهو يتعاقب حيالها تعاقب الصور السينمائية حيال الأنظار . . . هو
 لعبها ممتعة ، أو قل : هو لنفسها حسرة ، فما شيء منه تناله تلك المُرقة
 إلا وهماً .

من بين هذه الصور السينائية على اختلاف ألوانها مشهد له في نفس المزقة البشرية أسمى منزلة وأعز مكان . . . إنه مشهد يتكرر عرضه أمامها كل يوم ، بل كل ساعة ، فلا تمل تَرَدُّد النظر إليه ، والاستمتاع بمرآه . ذلك هو المطعم الذى يتجلى على مقربة . وإن اهتمامها ليتجمع في ركن من أركان هذا المطعم ، تربع فيه خزانة بيضاء ناصع لونها ، تبدو تحت الأنوار الألاقة كأنها سبيكة من فضة . . .

تنطوى هذه الخزانة على أعظم كنوز الدنيا في حَسْبَان هذه المزقة ، أما هى في حقيقتها فليست إلا مستودعاً لحفظ المأكولات ، أو سمها باسمها الشائع : « ثلاثجة » .

لم تكن عين المَزْقَة البشرية تعدو هذه الثلاثجة الفخمة ، تهفو إليها كلما فُتِحت ، حتى أصبحت لطول الترصّد والتعهد أكثر خبرة بمحتواها من القائمين عليها . . .

ولو سألتَ المَزْقَة في أية ساعة أن تصف لك ما ضمت جوانب الثلاثجة من ألوان اللحوم التى تحشى بها الشطائر الفاخرة ، لأجابتك في غير تلعم ولا احتباس ، تَسْرُدُ عليك ما صَدَرَ عن الثلاثجة وما ورد عليها ، كأنها آلة حاسبة دقيقة التقدير والحساب .

وللمَزْقَة ولع أىّ ولع بترقب جانب خاص من تلك الثلاثجة تقبّع فيه كتلة هرمية من اللحم الأبيض الشفاف ، يسمونها : « الديك الرومى » .

ولقد طالما عكفت المزقة البشرية على ما يتيسر لها من أفلاذ اللحوم ونفسياتها ، تتبين فيها ما عسى أن يكون من لحم هذا الديك ، بيد أنها لم تطمئن يوماً إلى فوزها بقطعة منه على طول التعرف والتنقيب .

لا تدري المزقة فيم ولعنها بهذا النوع من اللحم على وجه التحقيق ؟ ولماذا تخصه بالتشوف والتشوق دون سواه ؟ ألكله الهرمى الفخم ، وهو يستوى على عرش الصحن في خيلاء ؟ أم لما يفوح من قُتاره الشهي ، حين يستل الطاهي سكينه فيقتطع منه الشرائح البيض ؟ أم لما يرتسم على أسارير الطاعمين لشطائره من مخايل التلذذ والاستمراء ؟

لقد التقت المزقة البشرية ذلك الاستمراء والتلذذ باحم الديك المنشود ، وسجلتهما في أعماق نفسها في دقة وإتقان ، كما تلتقط آلة التصوير منظرًا من المناظر فتسجله تسجيلًا لا يمحي على الزمان .

إن الملذات الدنيوية على اختلاف أجناسها تراها المزقة البشرية قد اعتصرت وصهرت في لحم ذلك الديك ، فهو في نظرها كنزها الثمين ، ولكنه كنز في عالم الأخيلة والرؤى ، لا سبيل إلى تحقيقه آخر الدهر .

وتواردت الأيام على المزقة البشرية ، تحيا حياتها المألوفة في نطاقها المحدود ، يفصلها عن العالم الحى الصاحب ذلك الجدار الزجاجي الذى يشف ولا ينيل . . . كأنما تحتويها وحدها جزيرة مستوحشة تحيط بها الأمواج من كل منحنى .

وأشرق الشمس ذات صباح ، توظف المزقة البشرية لتستقبل معها
النهار الجديد .

وعلى مألوف العادة ، كان خروجُها من الشق ، فجولاًتها في
المناطق المجاورة ، فزحفُها إلى المطعم لتعلم ما هنالك من فُتات ، فقبعُها
على الطوار تتلقى القليل من الهبات ، وتنحمل الكثير من الزجر والانتهاز ،
فعودُتها إلى الشق بعض الوقت لراحة وجمام .

وذاث لحظة ، وهى فى استرخائها تغشاها سِنَّة من النوم ، أحست
شيئاً يرتطم بها ، فلم تأبه له ، ولكن الارتطام عاودها فى عنف ، كأنه
ضرب متتابع ، وما أُلِفَتْ هى فيما سلف من أيامها أن تنال عليها هذه
الدفعات وهى فى ذلك الشق المنزوى : مأمنا الحصين . . .

ولم يبق للمزقة صبر على ركلات الأقدام باطراد ، فتجمعت
وتطلعت ، وبان لها أن الأقدام لا تَكْزِزُها على عمد ، وإنما هى الزحمة
والاحتشاد . فالطريق ثائر يمجج بالقوم موجاً ، والأفواج تمر سراعاً
فى قلق واهتياج .

وكانت الشمس وقتئذ توشك أن تودع ، متوارية خلف الشواحق ،
تاركة لأشباح الليل أن تحتل كل منفذ ، ولكن أضواء المصابيح السواطع
بادرت مُسْرعة أسهمها تمنع أشباح الليل من الهجوم والاقترحام . . .
وراع المزقة البشرية أن تلك الأضواء السواطع لم تكن على نحو

ما عهدت في ساعات الغروب من الأيام الخالية . . .
 ما خطب تلك الكتائب من الشفق الأحمر تتمزق في أرجاء الأفق ،
 فتملاً الجو من حولها ؟

وخفت وطأة الزحام في هذا الجانب من الطريق ، فاستطاعت المزقة في
 شِقِّها أن تزداد من تطلع وتعرف . وما هي إلا أن انتفضت رعباً وهلعاً ،
 وجمدت في مستقرها هنيئة يعرفوها ذهول . ثم جعلت تتقلص حيناً
 وتمدد حيناً آخر ، كالودودة الحيرى ، وهي تشرئب لكي يتاح لها
 أن ترى وأن تتبين .

ذلك هو الفضاء تُجاهها يربدّ ويكفهر ويتكاثف دخانه ، وتلك
 هي الشَّعَلُ تندلع ألسنتها كأنها شياطين الجحيم . . .

ثمة شواهد ثلاث تحترق . . .

ومثلت المزقة البشرية تنفرج . . .

منظر فريد لم يقع عليه بصرها من قبل . . .

وظلت المزقة في غمرة من الدهشة والعجب ، وهي تنقل أنظارها بين
 هذه الشواهد المحترقة ، وقد زُلزِلَتْ زلزالها . . . فيها تصطبغ أصوات
 الاستغاثة والفرع ، وقد مازجتها جلبة التحطيم والانهيـار ، على إيقاع
 من زفير النار !

وظفقت الهناة البشرية ينقشع عنها ما تحسسه من رهبة وقلق ، بل

لقد تسلسل إلى قلبها شعور جديد . . . لون من الراحة ، سرعان ما استحال
مرحاً يتمشى في أعطافها ، مرحاً من نبع الغريزة في أعماقها البدائية
المتأصلة .

وانقضت من الشواحق جدران ، وتزايدت جوانب ، ففغرت المزقة
البشرية فاها . . . أيلحق الفناء هذه الرواسخ السامقة ؟ أهى تشبه الحى
الذى يحول ويزول ؟ عجباً لها تُحتضر الآن كما يُحتضر الإنسان !

كانت هذه الشواحق فيما تحسب المزقة البشرية كائنات لا يحل بها
ربُّ الدهر ، فهى ثابتة على الزمن ، لا يعرفها وهن . . . الحيوان وحده
هو الذى تلعب به الأحداث ، ويدركه الفناء ، فما بال هذه الشواحق
الآن في طرفة عين تهاوى وتبيد ، بل إنها تهبط إلى أدنى درجات الإذلال
والابتذال ؟ حرمتها الأمين يستباح ، وهيبته الغريزة تُستهك ، وأهلوها
وذووها يتسللون منها ليواداً في هزيمة وانكسار ، وما ضمنت من غالى
الرياش وفاخر المتاع تنهيه الأيدي في جرأة واستخفاف .

المزقة البشرية في موقفها الراجف تلمح من بين الجدران المتصدعة
أشباح السالبين في هرج ومرج ، وقد تأبطوا صنوفاً من اللغائف والرزَم ،
مما كتبت له النجاة من الحريق .

المرح الغريزى البدائى في نفس المزقة البشرية يزداد ويتوهج ،
فإذا هو هيجة تحتدم فيها أشتات المطامع والتزعات .

يا للعجب العُجَاب ! ... إن المزقة البشرية لتحس في ذهول أن
ذلك الحاجز الزجاجي الغليظ الذى يفصل بينها وبين العالم الصاحب
العظيم قد أخذ يَرِقّ ويلين ، وإنه ليبلى من اللين والرقّة أن يذوب ،
فلا يبقى له من كيان .

يا للعجب العجَاب ! ... إن المزقة البشرية لتحس بأنها قد خُلِيَتْ
بينها وبين ذلك العالم الصاحب العظيم ، وأنه قد أصبح منها يسير
المنال ... لقد بدأ عالم الأخيلة والأساطير يفتح أبوابه للمزقة البشرية
يستقبلها في حفاوة وترحيب !

وطاف بالهناة الآدمية خاطر ، فاهتز جُسمانها الضئيل اهتزازة
شديدة ، وما لبثت أن تقلصت ، ثم انبسطت ترحف في سرعة لا عهد
لها بها فيما غبر . كيف واتها تلك القوة التى حلت الآن في أوصالها ؟
من أين لها هذه السطوة التى تستشعرها باعثة لها على الإقدام والاعتحام ؟
كلما لاحت لها الأشباح في غدوّ ورواح ، ظافرة بالغنائم والأسلاب ،
ألْفَسَتْ جُسمها يخفّ بها دالفاً إلى مكان مقصود ، وهدف منشود !

وما هى إلا أن تسربت في المطعم ... إنه لينقلب الساعة خليطاً
من شُعَلٍ وأنقاض ، خليطاً من تدافع واصطدام ، خليطاً من لُفّة
محروم ، وفرحة منتهب !

ولكن المزقة لم تكن لِتُعْنَى بشيء ، إنها بصيرة بما تشدّ ، وإنها

لتعرف خطاها إليه ، وتلك هي تمرُّق حتى تستقر عند الخزانة التي كساها
الدخان ثوبه ، وفي لمح البصر تشبثت المزقة بها تعالج فتحها ، ولم تَمض
لحظة حتى تعلقت برفوفها تقتلع الكتلة الهرمية ، كتلة اللحم الأبيض
الشفاف . . .

طارَت المزقة البشرية بهذا الديك العظيم ، تنجو به من المطعم
وأصحاب المطعم ، ومن النار وأصحاب النار .

إنها الآن في الطريق تزحف متعجلة ، وهي ترتعد احتياجاً ، وقد
اتخذت إحدى يديها عوناً لها على الزحف ، واستبقت يدها الأخرى
تضم بها إلى صدرها العارى ذلك الكثر الثمين ، أو بالأحرى : السمين !
إنها تمضي ، وتمضي . . . ولكن إلى أين ؟ وكيف المفر ؟ سؤال
لم تجد له المزقة في ساعتها تلك من جواب .

إنها ماضية ، في حِضْنِها كثرها الغالي ، تحس لحمه الغض الشهى
يلمس صدرها ، ليشعرها بأنه في حوزتها ، لا يقاسمها فيه شريك .

وواصلت زحفها ، وسمعت خلفها خفق أقدام . . . وتناهى
إليها بعد ذلك لغط ، تبينت فيه ألفاظاً لا تبعث على ارتياح . . . فجذبت
زاحفة تشبث بالديك ، وكأنها أم تحتضن طفلها الأعز لتحميه من
عدو يريد به الفتك .

وتلاحقت الخطا خلف الهناة البشرية حتى أدركتها . . . إنها خطا

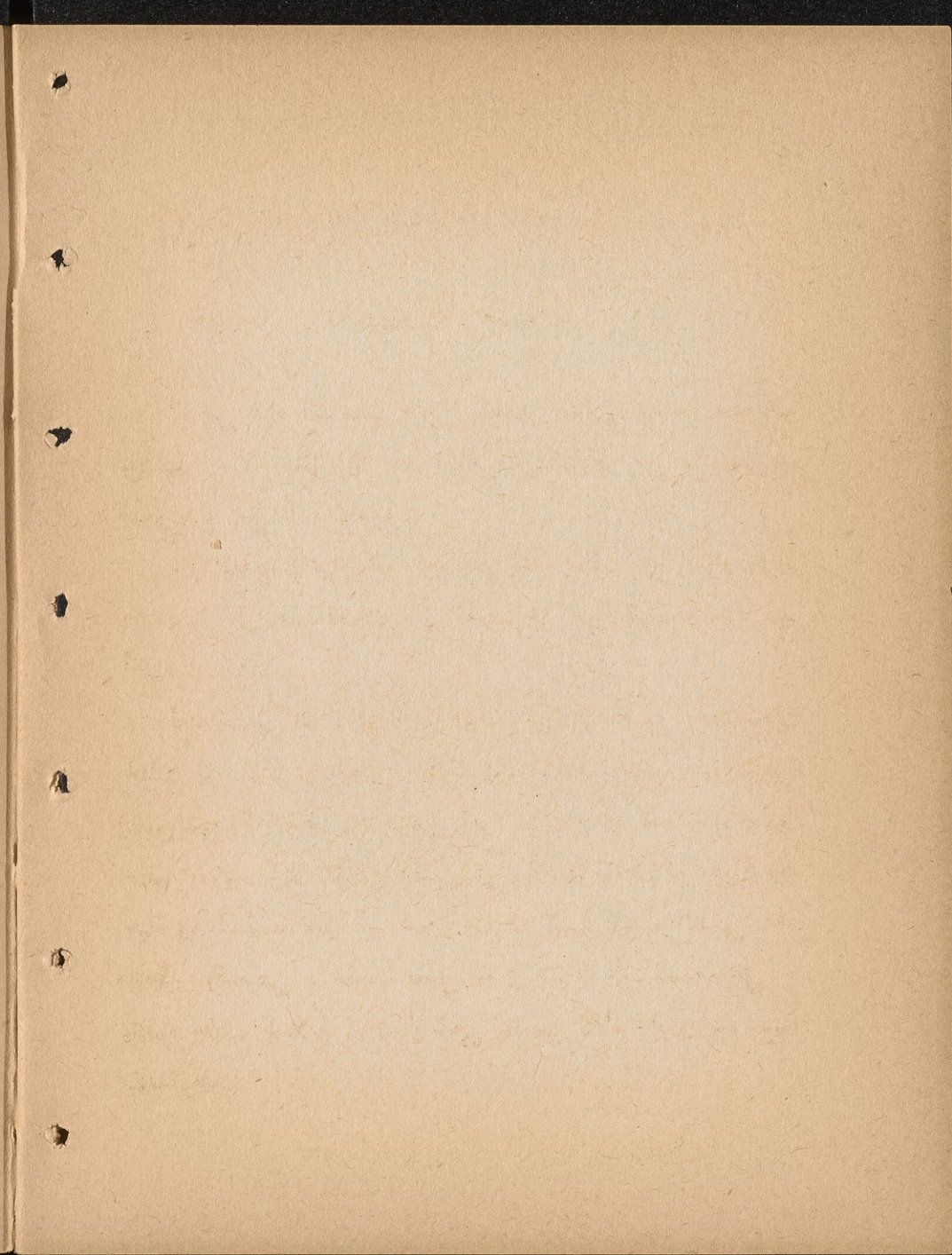
الغلان من عُمَاق الطريق تهدد وتتوعد ، وتطلب أن يكون لها في الديك حق معلوم .

وتجتمع الغلان على المزقة البشرية يحاولون انتزاع الديك . . .
وكانت معركة ، هى معركة القوة-حين تستطيع على الضعف ، ولكنها كانت أيضاً معركة الحياة حين يدفع فيها الضعيف عن نفسه ، فإذا هو ذو شِرةٍ وبطش وجبروت .

لم تجد المزقة البشرية من مَسْخَلَص إلا أن تتكور جاثية على الديك ، تحفظه من الطامعين فيه ، مستأثرة لنفسها به : أسنانها تنهش ، وحُلُقومها يبتلع ، تاركة ظهرها دِرْعاً تتلقى الطعن والعراك . . .
واستحرق الشجار دقائق . . .

واستطاعت الغلان بعد لأى أن تقلب المزقة البشرية ظهرها لبطن ، وأن تستخلص ذلك الكنز الذى دارت من أجله المعركة الضَّرُّوس . . .
فإذا الديك هيكَل من عظام .

وإذا المَزَقَةُ البشرية جثة هامدة !



كُنَّا أَرْبَعَةً

أنا من قراء الصحف الذين يقطعون أوقاتهم بمطالعة الحوادث والأخبار ، لا أستثنى إلا تلك المناعى التى تتقاطر من بين سطورها الدموع ، أغنى أنباء الوَفَيَّات !

مالى ولهذا الأخبار التى يحصرها إطار حالك من السواد وشارة الحداد ؟ مالى ولهذا الفجائع التى تذوب من حولها قلوب وتفتت فيها أكباد ؟

لقد جَبَلَنى الله نَفْسُوراً من الموت والموتى ... أَشَقَّ خطا عندى خطاى إلى المقابر ، وأبغض المشاهد إلى مشاهد الجنائز ، ولا تنقبض نفسى لشيء كما تنقبض إذا ضمنى مأتم ... أى جدوى لهذا كله إلا تعكير صفو الحياة ، وإلا تنغيص النفس بشيء لا مفر منه لكائن حتى ، ولا حيلة فيه لمُقَدِّمٍ عليه أو مُحَجِّمٍ عنه ؟ كيف أستبيح لنفسي هذا التعكير والتنغيص ، جاحداً فضل الله فى إسباغه ثوب الصحة على ، وتوفيره جانب السلامة لى ؟ ما للحيّ يطمس لألاء الحياة أمام عينيه بظلمة الموت ؟ !

ويوماً راقني مقال في صدر إحدى الصحف ، فحضيت أطالعه ، وكانت للمقال بقية في الصفحة السابعة ، فطويت الصحف تباعاً إليها ، فأخذت عيني صورة يجللها السواد ، تملأ جانباً كبيراً من باب الوفيات . وكانت الصورة فوقها عنوان ظاهر ، وتحتها أبيات من الشعر ، فوجدتني أتوسم الصورة وأقرأ ، ولم ألبث أن شغيت عن بقية المقال التي كنت أطلبها ، وشردت في الفكر يتخبط الأيام والسنين إلى عهدي الأول ، عهد النشأة والصبا . . . لقد تبين أن الصورة التي أجتليها ليست إلا صورة امرئ كان لي إبان الدراسة رفيقاً ، وأن ألواناً من الذكريات تربطني به في تلك الأيام الحلوة من شبابنا النضير .

ورأيتني أترك الصحيفة ماضياً إلى صوان قديم تتجمع فيه أشيات من مخلفات العهود ، وجعلت أنبش فيه وأفتش . وبعد لأي وجدت ما أطلب ، صورة لي في رفقة من أقراني يرجع تاريخها إلى ربيع الشباب . فأخرجتها من مكانها السحيق ، وطفقت أحدق فيها والفكر يخلق بي في بعيد من الآفاق . . .

هأنذا رابع أربعة يتجلون في الصورة فتياناً تنضو على وجوههم بسملة الأمل ، وفرحة الحياة . . . أولنا : صديقنا « سامح » ذلك الذي قرأت الساعة منعه في صحيفة الصباح ، وعن يمينه « شوكت » ، فيليه « وصفي » ، فالعبد لله ...

كنا أربعة نترامل في المدرسة ، ونؤلف جماعة لا تنفصم عُرُها . . .
 ميولنا متشابهة ، وأعمارنا متقاربة . ولأمر ما فكرنا في أن تجمعنا هذه
 الصورة قُبَسِيْل تخرُجنا في المدرسة . أفكان القدر يوحى إلينا بأن نسجل
 هذا التذكّار قبل أن تعصف بشملنا يد التفريق ؟

لم نكد نفرغ من المدرسة حتى أخذ كل منا طريقاً يختلف عن
 طريق أصحابه . فأصبحنا لا نتواصل ولا نترامى في قريب أو بعيد .
 ولقد لبثت حتى نيّفتُ اليوم على الخمسين ، لا أعرف شيئاً من أمرهم
 جميعاً ، إلى أن وافتنى صحيفة الصباح برسم صديقي « سامح » حين
 انقطعت أسباب دنياه من أسباب دنيائى !

وتواردت الذكريات تجلو لى صفحة من حياتنا في تلك الحقبة
 الغابرة ، حين كنا نحسب الأقدار طوع يميننا ، ندعوها فتستجيب ،
 ونرغب إليها في عوننا فلا يخيب لنا معها رجاء . . . ما أروع تلك الأمانى
 التى بنيناها قصوراً شوامخ ، ووقفنا تجاهها نتملى بهاءها ونشعر بما لنا
 من عزة وسطوة واقتدار ! . . . وإنى لأتلفت اليوم لأنظر أين أنا من
 هذا كله ؟ وماذا صنعت به الأيام ؟ فتسبح على فى ابتسامة هزيلة ،
 وأجد وقد الحسرة يتنزى به قلبي .

ورجعت إلى الصورة التى تجمع الأربعة الرفاق ، فجعلت أرنو
 إلى « سامح » والعجب آخذ منى كل مأخذ . . . إنه كان أحدنا

فى السن ، وأوفرنا نصيباً من قوة البنية ، وأكثرنا تمرساً بفنون الرياضة .
 وألفيت يدى تجرى تحت صورته ، تخط تاريخ وفاته . . .
 وألقيت بالصورة عن كذب منى ، وأشعلت لفافة ، ثم أرخيت للفكر العنان .
 وراعتنى تنهدة عميقة أفلتت من صدرى ، فاختلجت لها أوصالى ،
 فنهضت من فورى أنفض من حولى أطياف الهموم والأشجان . وجزّت
 فى طريقى إلى البهو بمرآة ، فأبطأت قدمى قيالتها ، ومكثت هنيهة أدق
 النظر فى قسماى وجهى .

يا سوء ما أرى ! . . . ما هذه الغضون التى تعقدت تحت عينيّ ؟
 وما بال ذلك الشعر الأبيض يغزو فودىّ ؟

ولويت عن المرأة رأسى ، وتابعتُ إلى البهو خطاى ، وما عثمت
 أن أطلقت من بين شفقى ضحكة استهزاء . . . أى شأن لتلك التجاجيد
 وهذه الشعرات ؟ . . . وعدلت قامتى ، وبسطت صدرى ، وأرسلت
 سَعْلَةً قوية تفصح عن ثقة بالنفس ، ومضيتُ أدقُّ الأرض بخطواتى ،
 ثم أعليت صوتى أناذى سائق السيارة ، قائلاً له :
 سأخرج قبيل الساعة الثالثة لأشيع جنازة . . .

واحتوانى الصف الأول بين المشيعين لجنازة رفيق صباى « سامح » ،
 وأمام عينيّ نعشه تحمله الأعناق . وكنت أتمثل الصديق فى رقدته
 رفاتاً هامداً لا حول له ولا طول ، فأجدنى لا ألبث أن أطف بيبصرى

فيما حولي ، أستمرئ ما تزخر به الدنيا من حركة ونور ، وأستشعر
يقظة العيش وحرارة الحياة !

وخطرلى وأنا من وراء النعش أن أتفقد صديقيّ الآخرين : « شوكت »
و « وصفي » ، فلم أجد لهما بين الناس ظلاً . فأنكرت منهما هذا الإخلال
بحق الصحبة ، وذلك الجحود لفضيلة الوفاء . وساءنى منهما أنهما قد
ضنا بوضع خطوات يودّ عان بها رفيق صباهما إلى مقرّه الأبدى !

وحرصت على أن أقفوا أثر الف قيد حتى يوارى في رسمه ، ومشكّلت
قُرابة الرسم أقرب الجثمان ملففاً في أكفانه ، واللاحادون يحملونه بين
أيديهم ويغيّبونه في بطن الثرى ، ويضعون الجنادل على فم القبر ،
ثم يهيلون فوقها التراب ! . . . وعلى الرغم مما يثيره هذا المشهد من كتابة
وانقباض ، فقد أبيت إلا أن أشربه كأساً حتى الثمالة ، ورجعت أدراجي
إلى الباب ، فوافقت فيه كبير أسرة الف قيد ، فشددت على يده أعزيه
في حرارة ، واندفعت نحو السيارة مطمئن النفس بأنى أديت واجباً لم
يكن من تأديته بدّ ، فأرضيت ضميري ، وأقررت عين المروءة والوفاء .

وأضيت ليلتي ينبو بي المضحج ، فإن أخذنى النوم فزعتنى
أضغاث أحلام . . . وأصبحت أواعد نفسى الخروج أصيلاً للنزهة
والترويح عن النفس ، وما إن استيقظت من نومة القيلولة حتى سارعت
إلى ارتداء حلتى ، ووقفت تجاه المرأة لحظة ، فلم يرقى رباط الرقبة
(٥)

الأقمم العبوس ، فما هى إلا أن نزعته ، واستبدلت به رباطاً بهيج الألوان .
 وخرجت إلى النادى أرزح أعطافى ، فقضيت فيه أمسية شائقة أصبت
 فيها من ضروب المتع ما لذ وطاب .

وكنت فى اليوم بعد اليوم وأنا أطلع الصحف ، أراى قد انزلت
 عيناى إلى أنباء الوفيات أعبرها على كره ، لا أدرى أى حافر هو
 دافعى ؟ ولا أعرف أية غاية أنا أريد ؟

وليلة وقد جلست إلى مكتبى أنبش أوراقى ، برزت لى صورة
 الرفقة الأربعة ، فأرعتها نظرى بعض وقتى ، وساءلت نفسى :
 أليس من الواجب أن أعرف إلى أى مصير سيق رفيقائى الباقيان :
 « شوكت » و « وصفى » ؟

وصباحاً وأنا أتأهب للخروج باحثاً عن هذين الصديقين ، ألقيت
 على صحيفة الصباح نظرة خاطفة ، فما راغنى إلا أن أشهد اسم « شوكت »
 فى طليعة أنباء الوفيات ، عاجلته المنية فجأة ، وهو فى أكمل عافية وأتم
 صحة . وذهلت أشد الدهول . ما هذا ؟ أى اتفاق عجيب ذلك الذى
 جرى لى اليوم ؟ أكنت أفكر فى صديقى « شوكت » وهو يسلم الروح ؟
 أخطو إلى زيارته ، فيسبق إلى نعيه ؟

وعجلت إلى مكتبى أتملى صورة الرفقة ، فزادنى عجباً أن فقيد
 اليوم « شوكت » يقع من الصورة تالياً لفقيد الأمس « سامح » .

ما سر هذا الترتيب والتعقيب ؟ أثمة في الأمر تدبير خفي " تصنعه الأقدار وراء الغيوب ؟ وجعلت أقلب مختلف الآراء ، وأتصفح وجهات النظر ، فأنتهيت أخيراً إلى أن ما جرى اليوم ليس إلا مصادفة محضة لا تقتضى كبير تأمل ، ولا تستوجب أن تقام عليها فروض وأحكام .

وانكسبت على المكتب أخطت تحت صورة « شوكت » تاريخ وفاته ، كما صنعت يوم انتهى إلى نعي الصديق « سامح » . وما أسرع أن ناديت سائق السيارة أقول له :

سأخرج قبيل الساعة الثالثة لأشيع جنازة .

وبعد أن أصبت غداً في الواحدة بعد الظهر ، استلقيت أنقيت ،
فإني اغتمضت عيني حتى زحفت على أشباح ومشاهد هاجت لها أعصابي ، وتبينت من بين هذه الأشباح والمشاهد جسمان صديق « سامح » ملففاً في أكفانه ، تحتمله الأيدي ، وتُدلى به إلى مستقره تحت الجنادل ، ثم تغلق عليه منافذ الهواء والنور ، وكأنما انفرج القبر مرة أخرى بعد لحظة ليستقبل جسماناً جديداً هو جسمان صديق « شوكت »
وقد تخايل وجهه مصفراً ناصلاً تعلوه القتامة والتجهّم ، فأنتهت من سنة نومي مزعجاً واجف القلب ، أطلب إسعافاً ببعض المنعشات . . . وبيننا أنا جالس على المقعد المريح منسرح الفكر ، إذا بالسائق يقبل على قائلاً : أرِف موعِد الجنازة !

فقمْتُ إلى مكتبي ، وجذبت منه ورقة ، وأجريت القلم فيها
بكلمات ، ثم التفتُ إلى السائق أناوله إياها ، وأنا أقول له : هذه برقية
تعزية ، فابعث بها . . . إني متوعلك ، لا طاقة لي بالخروج !

وفي مغرب الشمس كنت قد استكملت ارتداء حلتي ، وانتقيت
لعنق ذلك الرباط البهيج الألوان . فأقلتني السيارة إلى النادي ، حيث
أمضيت أمسيةً شائقةً أصبتُ فيها من ضروب المتع ما لذّ وطاب .
وترادفت أيام لم أجد فيها لنفسى من قرار ، ولم أعرف لذلك من
باعث يسكن إليه البال .

وجلست يوماً أمام مكتبي أنقب وأقلب ، فإذا يدى تتصيد الصورة
المعهودة ، صورة الرفقة الأربعة الذين ذهببت المنية منهم باثنين فيما
انتهى إليه علمى . . . ولبثت ملياً أرنو إلى صورة « وصفي » ثالث الأربعة
الرفاق ، وإذا أنا أناجيهِ : ترى كيف أنت ؟ وماذا صنع الله بك ؟
أعلى ظهر الأرض تعيش ، أم طاف بك طائف المنون ؟ !

وجعلت أرجع على نفسى لائماً إياها ، إذ كنت أعرض عن أنباء
الوفيات منذ سنين ، وكان خليقاً بي ألا أهمل هذا الجانب الحى من
جوانب المجتمع البشرى !

وهبيت واقفاً وقد بنيت عزى على تدارك ما فرطت فيه . إن على الآن
أن أتقصى نبأ « وصفي » . غير لائق بي أن أستهن بحق الصحبة السالفة ،

وحرام علىّ ألا أرعى عهدَ الإخاء القديم .

وظفقت أفدح ذاكرتي ، لأبتعث ما كمن فيها من مشاهد الأمس البعيد ... أنسى أن «وصفى» كان أمثل الرفقة خلقاً ، وأصفاهم قلباً ؟ وأنه كان أطوعهم استجابة للمودة ، وأسرعهم صنعاً للجميل ؟ ليت شعري ماذا منعه أن يسأل عني ؟ بل ما أسوأ موقفى منه إذ أهملت التفقد له ، والسؤال عنه ... لزّام علىّ أن أحو هذه القطيعة بينى وبينه ، وأن أجدّد معه عهد الأخوة والوداد ... لا فجعنى الله فيه ! ... لا كان إلا سالماً معافى !

وأذكيّت همتى فى البحث عن «وصفى» ، حتى عرفتُ بعد المجهود أنه فى قيد الحياة ، وأن الدنيا بخلتُ عليه بالحظ السعيد ، فعاش مغموراً لا جاه له ولا طول .

وفى أصيل يوم مضت بي السيارة إلى حيّ «مصر القديمة» حيث يقيم «وصفى» ، فدلتُ عليه فى قهوة وضبعة هى له مستقر ، وطالعت طيفه وهو فى ركن من القهوة قابع يدخن لفافته فى تبلىد ، فتدائنت منه هاتفا باسمه ، وبسطت له يديّ أستقبله ، وأنا أردد : «وصفى» ... «وصفى» ...

وأردفت أقول : ألا تذكر صديقك القديم ، صديق التلمذة ؟ ورأيتّه يتطلع إلىّ مشدوهاً ، وهو يحاول أن يحدّ ذاكرته ، وما لبث

أن لاحت على وجهه المغضن المكدود بسمة مهزولة ، ونهض يصافحني ، فضمتمته إلى وأنا أربتُ ظهره ، فجاشت نفسه ، ولحت عليه ظواهر التأثر ، فابتدرته أقول : ما أجمله اتفاقاً أن أراك فجأة وأنا في طريقى إلى لقاء بعض المقاولين في هذا الحى . . . لم تذهب عن فطنتى سيأتك ، على الرغم من تقادم الزمن ، فما كادت عيني تلمحك جالساً حتى عرفتكَ . . . كأنك لم تغب عني يوماً !

وسرعان ما تطارحنا أطراف الأحاديث ، كلانا يسأل صاحبه عن حاله ، ويترحم معه على عهد مضى ، مرت بعده حلاوة العيش ، وانكدرت بهجة الأيام !

وانساق بنا الحديث إلى صاحبيننا اللذين ضمتهما صورتنا . . . صورة الرفقة الأربعة ، ووضع لى أن « وصنى » لا يعلم من أمر الصاحبين شيئاً ، وأنه لا يدرى أمن الموتى هما أم من الأحياء ؟ فأخفيت عنه حقيقة ما أعلم ، وصرفت عن ذلك وجه الحديث .

ولما حان لى أن أنصرف ، شددتُ على يد صديقى وأنا أقول : لا فراق بيننا بعد اليوم . . . فلنجدد من صداقتنا ما انقضى ، ولنستعد تواصلنا كما كنا في زهرة العمر . . .

أدبرت عن الصديق جالساً فى قهوته ، وقد ثارت فى نفسى مشاعر أورثتنى هما . . . وارجته لهذا الصديق المنكوب ! يا سوء ما صنعت

به الأيام ! لكأنه حيالى جدار يريد أن ينقض . . . وأية حياة تلك
التي يمارسها فى هذا النطاق الضيق من العيش ؟ إنه لا يعرف من دنياه
إلا هذه الرقعة من الأرض بين مسكنه وقهوته فى تلك المرامى الوضيعة !

ورجعتُ أدراجى إلى دارى ، فتوخيتُ مكتبى من فورى ،
واستخرجت صورة الرفقة الأربعة أتطلع فيها ، ووجدتني أقرأ تاريخ وفاة
الصديقين الراحلين على التعاقب ، وأتوسم طيفيهما وهما واقفان جنباً
إلى جنب ، ثم إذا بعينى تلتفت إلى الشطر الآخر من الصورة ، شطر
الصديقين اللذين ما يزالان فى الأحياء : « وصنى » ، وأنا من بعده !

وطارت بى الأفكار كل مطار ، ونظراتى تنتقل بين طيفينا فى
صورة الرفاق . وتمثل فى خاطرى شبح صديق حين رأيته اليوم مهالكاً
متداعياً قصمت ظهره الأحداث ، وراعنى أن ذلك الجسد المنهوك
لا قبيلَ له بمصارعة الزمن ، ولا طاقة له على مغالبة الحياة . . . أترأه
يسير قُدماً إلى مصيره المحتوم الذى سبقه إليه رفيقه ؟ أترى الأقدار قد
رتبت فى تلك الصورة مصاير هؤلاء الرفاق واحداً إثر واحد ؟

وعدلتُ عن المكتب أخطو نحو الشرفة ، وأنا أنشد طراوة النسيم ،
وجعلت أذرع الأرض ذهاباً وحيثة . . . ما لى أقيم لهذه الوسواس وزناً ؟
مالى أعكر صفو يومى على بهذه الأفكار السود ؟

وما هى إلا أن ناديتُ سائق السيارة أطلب إليه إعداد العدة ليخرج

بي إلى ملهى أفضى فيه أمسية ضاحكة .

وفي غدى ألفت خطاى تقودنى إلى الطريق الذى طرقتة أمس . . .
ولقيت هناك صديق « وصفى » فى ركنه المعهود ، تستغرقه تلك الغمرة
من البؤس والحمول . ولم يعز على أن أستخرجه من بين رواد القهوة ،
ماضياً به إلى بعض المنازه ، ووجدتنى أسأله : فيم إهماله وتفریطه فى
حق نفسه ؟ ولم استكان إلى هذا اللون من معيشة جدباء لا متعة فيها
ولا أنيس ؟ وألفتينى أحدق فيه وقتاً ، ثم قلت : أتشكو علة ؟
فنظر إلى بعين كاسفة ، واليأس يمزق نبرات صوته ، وأجابنى :
لو كانت علة واحدة لاحتملتها !

— أنت كشأنك منذ صباك ، تبالغ وتغلو . . .

— أليست حالى كما ترى ؟

— أنت مجهود ، أما بنيتك فسليمة ، وكل ما تشكو منه عارض

يزول بقليل من الرعاية والتعهد . . . لم لا تستشير طبيباً ؟

فلوح بيده تلويحة استخفاف ، وهو يقول :

ماذا يهـ نع الطب فى جسم تخونته الأمراض ؟

فصاحت به : هراء . . . هراء !

وظفقت أتلطف به ، وأتحيّل له ، حتى بثت فى وليجة نفسه روح

التفاؤل والأمل ، فأمضى معى تلك العشية ضاحك السن ، هائئ البال .

ورجعت إلى بيتي قرير العين بما فعلت . أكان من الوفاء لعهد الصحبة أن أدع هذا الصديق فريسة لهمومه وآلامه ؟ أليس خليقاً بي أن أوليه من الرعاية جهد ما أستطيع ؟ ذلك نداء المروءة يدعوني أن أكون برّاً بأليف الصبا وقرين الشباب . . .

وضربت مع صديقي موعداً أصبحه فيه إلى الطبيب ، وتخيرت له طبيباً استفاضت شهرته ، وانعقد الإجماع على مهارته ، وأوصيته بالألا يدخر وسعاً في الفحص والبحث ، وأن يتخذ لذلك ما شاء من وسائل التحليل والاستبصار ، فقام الطبيب بذلك خير قيام ، وعين لنا يوماً نزوره فيه ليطالعنا بتقريره .

وفي اليوم الموعد مضيتُ إليه أنا وصديقي نتعرف ، فاستقبلنا الطبيب على فمه ابتسامته المطبوعة ، وبعد أن اتخذ مجلسه ، وأفاض في الحديث عن جهوده ومتاعبه في خدمة مرضاه ، قضى هنيهة صامتاً يقلب بين يديه أوراقه في استخفاف ، وعيوننا مشرعة إليه ترقب ما تنفجر عنه شفتاه ، ثم التفت إلى صديقي « وصفي » قائلاً له ، وهو يسدد إصبعه نحوه ، وما زالت ابتسامته المطبوعة على فمه : واجبي باعتباري طبيباً يقتضيني أن أصارحك بالواقع . . . لقد تبينَ ما بك . . . إنه ضغط دم مرتفع ، فضلاً عن إجهاد في القلب .

فما كادت هذه الكلمات تبلغ سمعي ، حتى أشرعتُ عيني إلى

صديقي أستوضح وَقَعَ ما قاله الطبيب في نفسه ، فإذا هو يرنو إلى الطبيب في بلاهة وتبلد . وألفيتني أتحرك في مقعدى ، مقبلا على الطبيب في لهفة ، أريد أن أسأله عما يجب أن يتبعه الصديق في علاجه ، فتفطن الطبيب من فوره إلى مرادى ، وأشار بيده إلى يقول :

رويدك يا سيدى ، فإنى لم أتم حديثى !

ثم التفت إلى صديقى وتوخاه بقوله : لا أحب أن أخدعك ... مهما يكن من أمر العقاقير فإنها لا غناء لها وحدها ... ثمة برنامج عليك أن تأخذ نفسك به ، فإن لم تفعل فلا نفع لطب ولا جدوى لدواء ... لا تنكر ما أخبرك به ... أنت مدمن تدخين !

فأجاب الصديق مطأطئ الرأس وقد أخذ بما سمع : حق ما تقول .

— لا بد لك من الإقلاع عن التدخين كل الإقلاع !

ففغر الصديق فاه قائلاً : كيف ؟

وتابع الطبيب قوله فى حماس : لزام أن تجرى فى معيشتك على نظام مستقيم ... لزام أن تتجنب سائر الأشياء المثيرة فيما تطعم أو تشرب ... حتم أن تحيا حياة صحية أساسها الاعتدال .

ثم انكب الطبيب على دفتره يكتب تذكرة الأدوية ، وقائمة المباح وغير المباح من الطعام والشراب ... ولما انقضت الزيارة ، وتهيانا للانصراف ، تقدمنى « وصفى » إلى الباب ، فتطلعت إلى الطبيب

أسأله بنظرات ملؤها الفضول ، فقال على قائلاً :

إن صاحبك يفتقر إلى مزيد من العناية .

وبارحت دار الطبيب أحس الضيق وتوتر الأعصاب ، وعجبت لصديقي كيف يتلقى حديث الطبيب في غير مبالاة ، بل لقد أثارني وهو يقول لي في بعض الطريق : ما أكثر ما سمعت من الأطباء . . . وما أقل استفادتي مما يخوضون فيه من هراء . . . إنهم يهرفون بما لا يعرفون .. أنا بنفسى أدرى ، وبِعلاجى أوفر خبرة !

فرددت عليه أقول : ماذا تقول يا « وصفى » ؟ أليق هذا القول برجل مثلك أصاب من العلم حظاً ؟ كيف لا تثق بالأطباء ؟ كيف لا تؤمن بما يصفون من علاج ؟

فهزّ لي رأسه هزة إصرار ، وما لبث أن مال على يدي يصفأخنى مستأذناً في الانطلاق ، معتذراً بأنه على موعد يخشى عليه الفتوات .

ومضيت وحدى أتصفح ما كان الساعة . . . يا لهذا الصديق من أحق جهول ! مالى أعانى من أجله المتاعب ، ما دام هو لا يعرف حق نفسه عليه ؟ لقد أبلغت نفسى عذرها ، فلا أنفض من هذا الأمر يدي !

وفى رونق الضحى من غدئ ، وجدتنى أقصد حى « مصر القديمة » مدفوعاً إلى ذلك بباعث خفى لا أدرك له كنهاً ، واقتحمت على الصديق حجرته ، فواجهتنى سمائب الدخان تتعقد فى الفضاء ، ولحت « وصفى »

يكرع من قدح القهوة ، فتدائيت منه أداعبه بقولى : مَرَحَى ! ...
مَرَحَى ! ... حقاً لقد أخذت تنفذ أوامر الطبيب !

فرنتُ ضحكته وهو يقول : ما للطبيب ومالى ؟ أنا بخير والحمد لله !

فحاولت أن أكظم غيظى ، ثم قلت :

ألم تعلم أن الضغط فى دمك مرتفع ؟

— أى ضغط يا سيدى ؟ لكل أجل كتاب !

فاندفعت أقول فى جدّ وحزم : أتعلم نتيجة ضغط الدم ؟ إنها

الذُبْحَة الصدرية والعياذ بالله ... إنها الشلل ... إنها ...

فقاطعتنى « وصفى » مغضباً يقول :

على رسلك ... فألُ الله لا فأك !

ولكنى لم أملك إلا أن أفيض فى بيان النتائج التى تترتب على إهمال

ضغط الدم وإجهاد القلب ، وبى فى الوصف حمية وحماس .

وأكملت حديثى قائلاً فى حدة وشدة : تلك هى الحقيقة أجأهرك

بها ، فاصنع ما ترى ... إنى لك ناصح ، وأنت على نفسك تجنى

لا على !

وألفيت الصديق يكسو وجهه قَتَام ، وهو يهمهم فى سهوم :

ألى هذه الدرجة بلغت بى العلة ؟

فأقبلت عليه أجلس قرأته ، وقلت له وقد سكنت حدتى ولان

منطقي : كان عليّ أن أثير اهتمامك يا « وصفي » . . . فليست الحياة عبثاً ، وليس العمر ألعوبة . . . في مقدورك أن تتدارك أمرك ، وتتلافى ما فرط منك .

ثم طفقت أربّتُ كتفه ، وأنا أتابع قولي : انهض معي نغادر هذا الحبس الضيق ، ونتنسم الهواء الطيب في مكان طلق .

فانقاد لي الصديق ماضياً معي إلى الطريق ، ففوضى في صحبتي وقتاً ممتعاً كان فيه ضحك السن ، ظاهر المراح . ولم أتركه حتى كان قد آمن بضرورة العناية بصحته ، وقطع لي على نفسه عهداً أن يأخذ من المرض حذره ، وأن يجري في معيشته على نظام صحيّ مرسوم .

وأحاطت بي شواغل عدّتي عن « القاهرة » بضعة أيام ، فما إن رجعتُ عصراً حتى استنكفت أن أقصد إلى منزلي قبل أن أعرج على دار صديقي « وصفي » أتیین أخباره ، فوافقته في حجّرته معتكفاً ضجميع الفراش ، وقد رانت على وجهه دُكنة ، واضطربت منه الأنفاس ، فهرعت إليه أقول : ما بك ؟

— لا شيء . . . لا شيء !

ولاحظت أنه يزوى عني بصره ، فلم أدعه حتى أقرّ لي بأن دُواراً عنيفاً ساوره حتى كاد يفقده وعيه ، فمجلت أستدرجه في الحديث لأخبر خبره فيما اتخذ من علاج ، وهو يتفلى ويتملص من الجواب ،

وأخيراً صارحنى بأنه لم يفعل من شىء على الإطلاق . فحذجته بنظرة
حامية ، وقد استشطتُ غضباً ، وصحت به : أنت تقضى على نفسك ،
أنت تتعجل حيينك ! ... الدوار آخر إنذار ، لاشىء بعده إلا الطامة
الكبرى ... لقد يثستُ منك كل اليأس ، فلا شأن لى بك من بعد ...
لن ترانى يوماً !

واستدرت أطاب الباب فإذا بالصدىق يحتذب طرف سترقى وهو يقول
فى صوت متثلن النبرات : أترضى أن تترك صديقك وهو على
هذه الحال ؟ حرام عليك !

فرجعت بصرى إليه أقول : وما حيلتى فىك إذا كنت تسخر من
رأى الطبيب ونصح الصديق ؟

فرفع إلى يده قائلاً : أعدك بأن أكون طوعاً ما تشير به أنت
والطبيب ... اغفر لى ما كان منى ... حسبى أنى أسأت إلى نفسى !
كانت خطة واحدة هى التى وضح لى أنها كفيلة بتحقيق ما أريد ...
تلك هى أن ينتقل صديقى « وصفى » إلى دارى ، حتى يتسنى لى أن
أشرف عليه أتم إشراف . لقد وقعت فى نفسى ضرعته ، وأدركنى عليه
إشفاق ، فهيات أن أقصرّ فيما يجب علىّ نحو تمرريضه وعلاجه .

استقلّ صديقى بحجرة فى دارى ، حجرة مشمسة طلقة الهواء ،
رحية الأكفاف ، تتوافر لها أسباب الراحة وطمأنينة العيش . ولم أكتف

بخدم البيت يرعونه ويؤدون حاجاته ، بل لقد تخيرت له خادماً الخاص ،
فأقامته على بابه رقيباً يتعهد ويترصّد ، وعلم الله أنى ما بخلتُ على صديقي
بلون من ألوان الرعاية والتلطف ، فقد كنت أدعو له الطبيب في فترات
مقاربة ، وأتولى بنفسى إنفاذ التعاليم الصحية له على أدق وجه .

وترادفت أسابيع تبدلت فيها حال الصديق ، فأشرق وجهه ،
وتلاّأت عيناه ، ودبّ النشاط في جسمانه ، وانبسّطت على نفسه
سكينة واطمئنان .

وعُدّته يوماً ، فأقبل علىّ يشدّ على يدي ، ودمع الشكر يندى
مقلتيه ، وهو يهمهم : لاقب أطيب من قلبك أيها الصديق . . . لست
أدرى بأى لسان أحمّد لك ما صنعت من جميل !

فلاطفته باسم الثغر أقول : ما عملتُ إلا ما أملاه علىّ ضميرى ،
وإن رفيقاً مثلك بلحدير أن أعرف له حرمة العهد القديم .

وساعةً كنت جالساً إلى مكتبي ، أرتب ما تبعث من أوراق ،
فبرزت لى تلك الصورة ، صورة الأربعة الرفاق ، فأرعتها نظرة عجلى ،
ثم ما عثمت أن قذفت بها في قاع الدرج الأسفل ، وقد تعالت ضحكات
الهزؤ من بين شفتى !

وشرع الصديق يرافقتنى في خروجى إلى بعض المنتزهات والأندية ،
[أول عهده بالإفاقة من مرضه ، على أنه ما كاد يحس وفور العافية في

بدنه ، حتى جعل يعتلُّ ببعض المعاذير ليخرج وحده ، فلم أقف حائلاً
بينه وبين ما يريد ، بعد أن استبان لي طمأنينة الطبيب إلى ما توافر له
من سلامة وإبلال .

ورأيت من الصديق أنه يكثر من الخروج ويطيل الغيبة ، ولا سيما
في الليل ، فأوصيت خادمي أن يكون على مراقبة منه ، يتعرف خاصة
شأنه ، فجاءني الخادم صباح يوم ينبئني بأنه اشمَّ من فم « وصفي » ريح
الخمير ، وأنه لمح يختلس أنفاس الدخان . . . فانسأقت خطاى إلى
حجرة الصديق ، ودخلتها بغتة ، فلما رأيته حياله ، قذفت من النافذة
بشيء في يده ، فتضاحكت محنتاً أقول :

إذا استطعت أن تقذف باللفافة من النافذة ، فما حيلتك في
رائحة الدخان التي تملأ أرجاء الحجرة ؟

فتلعثم « وصفي » وبدأ محرّجاً ضيق الصدر ، فجلست قريباً منه
أقول : هذه أعمال صبيانية يا صديقي !

فاكفهر وجهه ، وقال : أى أعمال صبيانية تأخذها على ؟

— مخالفتك لأوامر الطبيب . . .

— أتزمنى أوامره إلى الأبد ؟ . . . لقد انتهت مدتها !

— الطبيب لم يرخص لك في أن تدخن . . .

فاشرأب إليّ يقول : أأقضى بقية أيامي أسير العلاج ؟

— إذا كان هذا سبيل نجاتك فلا مفر لك منه .

فنهض الصديق متملحاً متبرماً يقول :

لكلّ أجل كتاب . . . والأعمار بيد الله !

— عدتْ إلى كلامك القديم .

— أحبّ إلىّ أن أعيش يوماً كما أهوى ، من أن أعيش عاماً في

قيود من الأوامر والنواهي .

فثلث أمامه مهتاجاً تكاد يدي تهوى على صُدْغِه تصفّعه ، وصحت

به : مثلك لا يستأهل إلا أن يعيش كما تعيش الأنعام !

فاحتقن وجهه « وصفي » وعلا صوته يقول :

أتسبني ؟ لا مقام لي في بيتك منذ الساعة !

وما لبث أن برحَ الحجرة مندفعاً كالعاصفة ، فعجبت من أمر

الرجل الذي أساء تقديره لعاطفتي نحوه فلم يثمر فيه الجميل ، ووجدتني

أستشعر اشمزازاً منه ، واستنكاراً له ، فأقسمتُ أن أقطع ما بيني وبينه

من أسباب . . . وغادرت الدار لبعض شأني ، فلما عدتُ في الظهيرة

سألت الخادم : ألم يحضر أحد ؟

— لا ياسيدي

فوجدتني أقصد حجرة « وصفي » ، فعاجلني الخادم بقوله :

إنه لم يعد ياسيدي . . .

— وهل سألتك عنه يا غبيّ ؟ أريد أن آخذَ بعضَ الأشياء من

الحجرة ...

وما هي إلا أن رجعتُ أدراجي أطلب غدائي ، فأصبت منه قليلاً
وأنا ساهم أفكر ، وقضيت ساعة القيلولة يراودني قلق ، ثم خرجت
إلى النادي ساعة الأصيل ، ولكن لم يطب لي السهر فيه ، فرجعت
إلى الدار أسأل الخادم : ألم يحضر أحد ؟

— لا ياسيدي ...

وإذا لساني ينطلق صائحاً :

لا ردّه الله ... كافر النعمة ، جاحد المعروف !

وبعد أن طعمت قليلاً من الحساء ، ونزراً من الفاكهة ، تشاغل
وقتاً على مكتبي بالتصفح لبعض المجلات ، فكلما دب إلى سمعي ديب
شيء ، انتبهت له ، وكأني أنتظر قدوم أحد .

وطالت جلستي إلى مكتبي ، وخاب أمل في كل ما انتهى إلى سمعي

من ديب !

وما إن انشق عمود الصبح ، حتى كنت قد أقنعت نفسي بأن
« وصفي » على علاته جدير بالرحمة ، فما يليق بي أن أجزيه بإساءة
بإساءة ، فإنه في واقع الأمر جهول أحق ، والجهالة عذر ، والحققة داء !
وأقلتني سيارتي إلى حيّ « مصر القديمة » أغدو على دار « وصفي »

فاقتحمتُ وكرّهُ ، وما كان أشدَّ ارتعاباً إذ رأيته ملقى على فراشه ،
وهو في حُلّة الخروج ، وقد ملكته غيبوبة . . . فاستنجدت بالسائق ،
واستبان لنا أن الرجل صريع خمر ، فأسعفناه ببعض المنعشات ، واحتملناه
إلى السيارة ، وإذا هو يستقرّ في داري . . .

ورجعتُ إلى الصديق يقظته ، فانفجرتُ أجفانه عن نظرات كاسفة ،
وهو يهمهم : أين أنا ؟ ماذا جرى ؟

فصاحكته أقول : لا شيء . . . علينا أن نغنى بطفلنا الكبير
على الرغم منه . . .

فلاحت على فم «وصفي» بسمّة عابرة ، وقال : حسبْتُني أصبحتُ
في عِداد الموتى . . . وارتحلت من هذه الدنيا !

فتعالى ضحكى وأنا أقول : الموت يتهب أن يمسك !
ولما قدّم الطبيب يتفحص الصديق ، احتد في حديثه معه ، وما زال
يحدّره وينذره ، حتى رأيت «وصفي» يتكلم حزين النفس ، مهموم
البال !

وخلوت بـ «وصفي» بعد خروج الطبيب ، فقال عليّ يضغط
يدي ، شاكرّاً لى عنايتي به ، على الرغم مما فرط منه .

وكان بديهاً أن أكون هذه المرة أشدّ رقابة للصديق ، وأكثر تعهداً له ،
فلم أدعه يتناول مطعماً أو مشرباً أو يزاول شيئاً إلا طوع ما رسمته له من نظام !

وَأَلْفَيْتُهُ بَادئُ الأَمْرِ سَهْلُ القِيَادِ ، غَيْرَ مُتَضَجِّرٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ ،
ولكنه كَانَ عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ ، كَلِمًا أَحْسَنَ مُعَاوِدَةِ العَافِيَةِ لَهُ ، ثَارَتْ بِهِ
جَهَالَتُهُ ، وَانْتَابَتْهُ حِمَاقَتُهُ ، فَحَاوَلَ أَنْ يَرْفَعَ رَايَةَ العَصِيَانِ . . . إِلَّا أَنَّنِي
حَزَمْتُ أَمْرِي مَعَهُ ، وَنَصَبْتُ فِي وَجْهِهِ يَدًا مِنْ حَلِيدٍ !

وَوَافَقْتُهُ يَوْمًا فِي البُهِوِ يَخْطُو إِلَى البَابِ ، وَهُوَ مُسْتَقِيمُ العُودِ ، بَادِي
النَّشَاطِ ، فَابْتَدَرْتُهُ أَقُولُ وَأَنَا مُبْتَسِمٌ : أَهْنُتْكَ بِمَا بَلَغْتَ مِنْ عَافِيَةٍ . . .
وَلَكِنْ عَلَيْكَ أَلَّا تَخْرُجَ عَلَى تَعَالِيمِ الطَّبِيبِ ، فَتَكُونَ النُّكْسَةَ ، وَهِيَ شَرٌّ .
فَنَظَرْتُ إِلَيَّ نَظْرَةَ ضَيْقٍ بِمَا أَقُولُ ، وَزَمَّ لِي شَفْتَيْهِ وَهُوَ يَتَفَوَّهُ بِهَذِهِ
الكَلِمَاتِ : لَقَدْ اتَّخَذْتَ مِنِّي أَنْتَ وَطَبِيبُكَ عَبْدًا رَقِيقًا يَسَاقُ كَمَا تَسَاقُ
المُطَيَّةُ الدُّلُولُ . . .

— مَا دُمْتَ بِذَلِكَ تَكْسِبُ الحَيَاةَ ، فَمَا أَيْسَرَ الطَّاعَةَ ، وَمَا أَهْوَنَ
الْإِنْقِيَادَ !

فَرَبَّتْ كَتَفِي يَقُولُ : لَكَ دِينُكَ يَا سَيِّدِي وَلِي دِينٌ . . . الْآنَ
أُسْتَوْدَعُكَ اللَّهَ !

— أَلَمْ نَتَوَاعَدْ عَلَى الخُرُوجِ إِلَى النَّادِي مَعًا ؟

— لَا رَغْبَةَ لِي فِي الذَّهَابِ إِلَى نَادِيكَ !

— إِذْنٌ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ ؟

— إِلَى الطَّرِيقِ وَكُنْفِي !

— من حق أن أعلم أين وجهتك ؟

فصاح محنقاً : إلى جهنم . . .

فأجبتة صائحاً : لا أدعك تفسد ما صلح من أمرك !

— ماذا تقول ؟ أمحجور على أنا تفرض على ما بدا لك ؟

— من أجل صحتك أفعل ما أفعل !

— لا شأن لك بصحتي .

— إنها حياتك تشرف بها على الخطر !

— هي حياتي لا حياتك ، أصنع بها ما أشاء .

فاشتد بي الحرج مما أسمع ، وصرخت غضبان أسفاً :

سأعنى بك على الرغم منك !

فارتجف قائلاً :

لا أسمح لأحد أن يتدخل في شأني منذ الآن . . . على نفسي !

واحتقن وجهه ، وانتفخت أوداجه ، واحتبست أنفاسه ، فها لك

على المقعد ، وأخرج من جيبه علبة تناول منها حبة ، ثم أخذ يروح وجهه

بمنديله . . . فما إن رأيته على هذه الحال حتى أخذني الرّوع ، وسرعان

ما تذكرت أن الطبيب كان أوصاني أن أجنبه بواعث الهيبة ، فتقدمت

منه مشفقاً به ، حانياً عليه ، وقلت له :

رحمة بنفسك يا صديقي . . . ماذا يدعوك إلى هذا كله ؟

وطلبت له بعض المنعشات ، واتخذت مجلسي بجواره حتى ذهب عنه الالتهاب ، واستقرت به الحال ولبثنا حيناً لا نتناقل من حديث ، وإذا هو ينهض ، فعلوت له ببصرى أستفسر ، فلم يعرنى من اهتمام ، وترك البهو مدبراً عن الدار ، وهو يدق الأرض بخطاه

وتواردت أيام يزيد فيها صديقي من حريته في التصرف ، مسرفاً على نفسه ، جانياً على صحته . وكنت أشهد ذلك منه ، وأنا في حيرة من أمره ، فإذا اضطربتُ إلى أن أقف في سبيله ، وأردّه عن غيّه ، ألفتيه قد احتد وهاج ، وأوشك أن تحتبس منه الأنفاس ، فلا أملك إلا أن أتحنّى عن طريقه ، خشية أن يقع به مكروه .

ولكأن « وصفي » قد عرف مني هذا الرفق به في النصيح ، واللين له في الإشراف ، شفقة به ، وحذراً عليه ، فمادى في انطلاقه ، وأباح لنفسه ما لا يبيحه طب ولا علاج !

على أني كظمت غيظي منه يوماً بعد يوم ، ، وما كنت أتوقع أن تبلغ به الجهالة والحمق هذا المبلغ من التعنت والعناد ، بل هذا المبلغ من الإلقاء بنفسه إلى التهلكة المحققة !

ومرة ألفتيه بعد الفراغ من تناول الغداء ، يخرج علبه لفائف ، فيأخذ منها إحداها ، ويهم بأن يشعلها في غير مبالاة وكانت هذه أول لفافة يجرؤ على أن يجتذب أنفاسها أمانى جهرة ، فعددت

ذلك استطالة على ، وتحدياً لى ، وإزراء بى ، ووجدت يدى تنبسط
إلى اللقافة وإلى علبة اللقائف تجتذبهما من يده ، فتجهنم وجهه لى ،
وقال : ماذا تريد أن تفعل ؟

فأجبت به صارم اللهجة : أنهاك أن تدخن .

فقد لى يمينه يقول مُرْعَشَ الصوت : ردّ علىّ علبتى !

— هيات ...

— بل تعطينى إياها !

— لا أعطيك شيئاً ضرره لك محتوم ...

فقفز من مقعده صائحاً بى : لن يكون لك بعد اليوم سلطان علىّ ..

إنى تاركك إلى غير ملتقى !

فوقفت قبّالته آخذ عليه طريقه وأنا أقول : لا أدعك تخرج .

— افسح لى طريقى وإلا ساءت العقبى !

— ماذا أنت مستطيع أن تفعل ؟

فدفعتى دفعة زحزحتنى عن موقفى ، وكدت بها أسقط ، وتركنى

متجهاً إلى الباب ، فما لكت وتماسكت ، ثم ما لبثت أن عَجِلت

إليه أصدّه ، وأنا أصيح : لا أدعك تخرج !

— إنى خارج لا محالة ...

واشتد بنا التدافع والصراع ، وأحسست « وصفى » كأنما قد استحال

نمراً ضارياً ينشب مخالبه في عنقي ، فحملتُ عليه بما وسعني من قوة
وَجِلْد ، حتى أشبعته لِكَمّاً ولِكزّاً ، وفجأة ألفيته يخرّ على الأرض ،
وهو ينتفض انتفاضة الطير الذبيح ، فعرتني رجفة ، وجعلت أحرق
فيه مذهولاً ، وأنا أصبح مستدعيّاً خدام الدار .

ولم يمض قليل من الوقت حتى كان صديقي ممدداً على سريره ،
لا حركة ولا نأمة ، والزبد يطفو على فمه ، على حين كنت مهتماً باتخاذ
ما أملك له من وسائل الإسعاف . . .

وحضر الطبيب ، وكانت منه نظرات أعلن على أثرها أن المريض
قد انفجر في رأسه شريان . . . فبرق بصرى ، وتلذذت من الطبيب
أستجديه عوناً ، فقال لي واليأس مرتسم على وجهه : لا حيلة للطب في
محتضّر ! . . . والأعمار بيد الله . . . لكل أجل كتاب !

لم أشيع جنازة « وصفي » ولكنني لم أقصر في تعهد أمرها ، ولم أدخر
وسعاً في إغداق الخيرات ترجماً على صديقي في يوم الوداع . . .
ولزمتُ الفراش أياماً ، كسير الجسم ، تنوشني آلام ، وتؤرقني
وساوس . . . ولما تماثلت شيئاً قصدت إلى مكتبي فإذا بيدي تنبش في
الدرج ، وإذا هي تتعلّق بالصورة المعهودة ، صورة الأربعة الرفاق . . .
فجعلت أرنو إليها وقتاً ، ثم استقرت عيني على رسم « وصفي » في

مكانه ، تالياً للرفيقين اللذين سبقاه إلى العالم الآخر . . .

وسنحت على فمي بسمه ناصلة . . .

واعجباه للقدر . . .

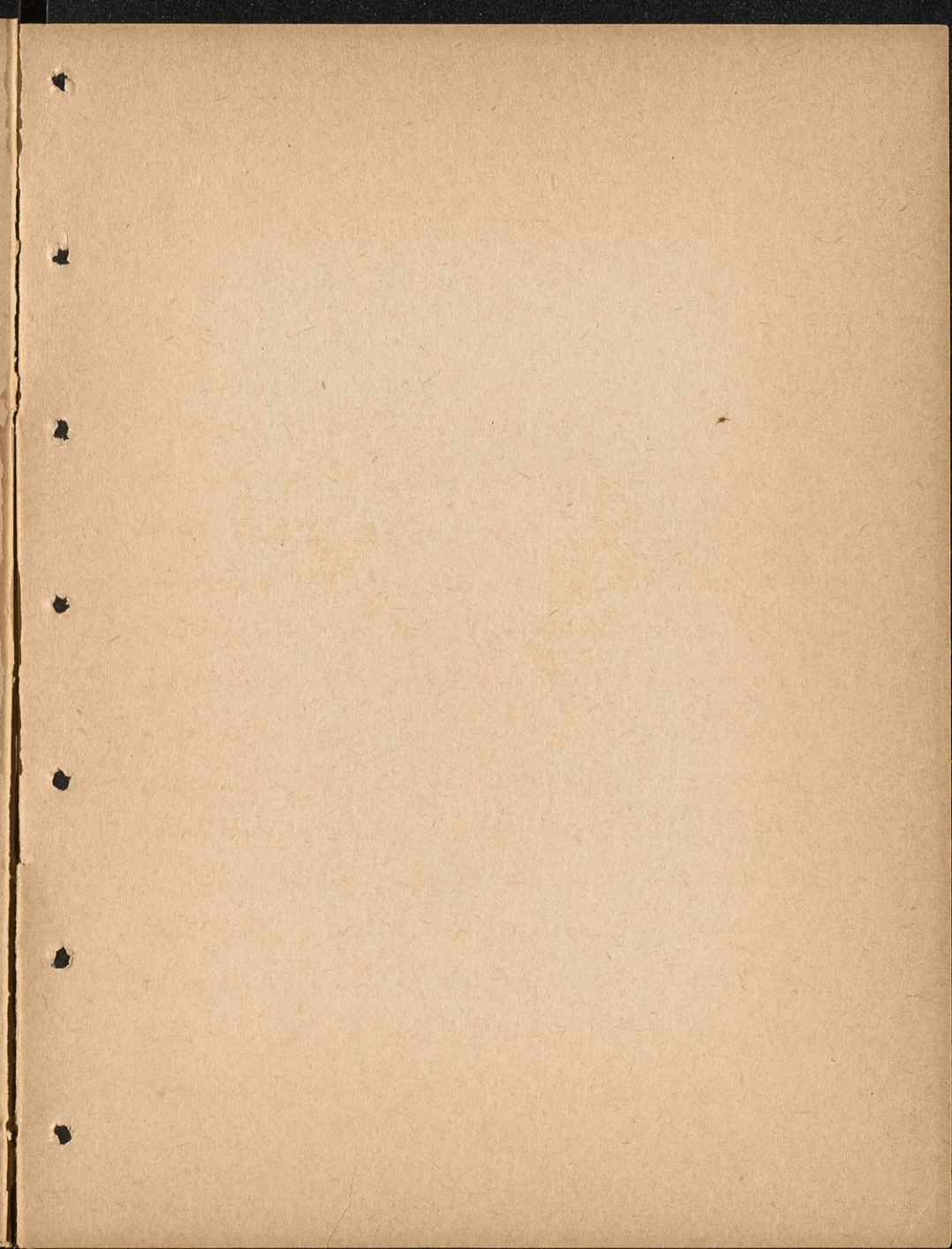
لقد أبى إلا أن يجعل من يدي أداة عمياء لتحقيق ما رسمه من

ترتيب وتدبير !

وجرى قلمي تحت صورة « وصفي » يخط تاريخ وفاته .

واستشعرت غرامة تكسو عيني .

وألقيت الصورة تهوى من يدي . . .



«بُودَا» الرَّحِيمُ

صاحبنا أقرب خلق الله شَبْهاً بتمثال «بودا» الإله . . . ذلك التمثال الذى يطالع عشاق الطرائف الفنية كلما ارتادوا أسواق التحف وحوانيت الألفاف . وإن هذا التمثال ليضرب على قوالب مختلفة ، ويصاغ حجوماً متفاوتة ، بينها الدقيق الضئيل الذى لا يكاد يبلغ ملء الكف ، وبينها الجليل الكبير الذى يزحم صدور الأبهاء والقاعات . ولكنه على الرغم من تفاوت حجومه واختلاف قوالبه لا يعدو شكله ، ولا تنسلخ عنه ملامحه وشيأته . فهو هو : جُسمان شحيم مترهل ، لا ساترله إلا ميزقة من ثوب ، وبطن يحتوى على كرش تبعج حتى تندلق ، ووجه مكرّوى متنفخ تغمره ابتسامة الطمأنينة والاستخفاف ، فى جلسة مسترخية كأنما ليس منها قيام . . .

كان صاحبنا أقرب شَبْهاً بذلك التمثال ، وإنك لتشهدده جالساً تلك الجلسة المطمئنة ، مخلداً إلى جحر خرب تخلف عن بناء متقوّض ، فلا تحسب إلا أنه نسخة من تماثيل «بودا» الإله ، نُحتت فى حجم إنسان سَوِىٍّ ، ثم أُلقت بها المقادير اتفاقاً فى ذلك الكهف المهجور .

العين تأخذه أبداً في مكانه لا يتحلحل عنه ، فهو منذ سنين ما كثر
 فيه ليلَ نهار ، يتعاقب عليه القَرّ والحرّ . وإنه ليربع في مجلسه ، وطيّات
 بطنه تتراعى كأنها موج باغته الجمود ، فاستقرت به الحال لا ينسبط
 ولا يتحرك . وإنه ليبقى دائماً في وضعه ، يغمره فيض من الطلاقة والبشر .
 على شفثيه ابتسام مطبوع ، وفي عينيه بريق ساذج ، وله من ذلك كله
 عتاد يواجه به الزمن ، ويحابه الأحداث . ولم يكن لصاحبنا صوت
 يُسمع إذا تكلم ، وقليل ما يفعل . . . فحديثه إن تحدث همس ،
 وضحكاته إن أطلقها رَهْز . . . فلست تعرفه ضاحكاً بما يتعالى من
 قهقهته ، ولكن بما تلمح من طيات بطنه وهي تنساب في توافق وانسجام !
 ومن الناس فريق يعلمون من أمر هذا القعيد أنه كان في سؤالف
 أيامه عائل أسرة ، له فيها أبناء وحفدة ، وأنه كان مذكوراً بحسن رعايته
 لأهله ، وبره بأطفاله ، فهو عليهم عطوف ، وهو بهم ولوع . . . وأسفر
 صبحُ يوم مضى فيه الرجل يستودع التراب آخرَ مَنْ بقي من ذويه ، فقد
 فقدهم على تتابع الأيام . واستقبل الرجل ما أصابه بنفس راضية ، وأدّت
 به خاتمة المطاف إلى هذا الجحر الحَرَب ، يقضى فيه بقية أنفاسه على
 ظهر الأرض . وما هي إلا فترة قصيرة ، حتى أضحى الرجلُ في هذا
 الحَيِّ عميدَ أطفاله . . . فطنوا إلى ما طبعت عليه نفسه من رفق وحذب ،
 وألِفُوا ما ينعمون به في مجلسه من أنس ومرح ، فكانوا يتوافدون عليه ،

منهم من يترجّح على ذراعه ، وفيهم من يمتطى رقبته ، وبينهم من يتسلق كتفه . فإذا بلغوا مأربهم من التواثب والتصايح تخير كل منهم جانباً من الرجل يُلقى عنده رأسه ، ويسلم للنوم عينيه ، والرجل باذل لهم حنوّه ، مسبغ عليهم تعهده ، كما يبسط الطير جناحيه للأفراخ !

وكان الأطفال يُعنون بجمع ما تناثر في أرجاء الحى من خِرَق وأوراق ، وإذا هم يلقون بها إلى الرجل ، فيصنع لهم منها ضروراً من الطرف عجائب ، تبعث فيهم البهجة والاعتباط . فهذا حمار تتدلى أذناه ، وذلك جمل يتعالى سنامه ، وهذه سفينة يخفق لها شراع ، وتلك عروس في ثوب زاهية ألوانه . . .

وتوافرت للرجل عطايا الكرام من أهل الحى ، وكانت الأمهات أكثر حفاوة به ، وإغداقاً عليه ، فعاش مكفول القوت ، ناعم البال . وآمن الرجل في مستقره بأن لكل شيء آفة ، فقد أبى الدهر إلا أن يرُميه بآفة ليس له منها خلاص . . . تلك هى بائع الفول المدمس الذى يقوم حانوته عن كُثْب من الجحر . . . متى رأيت بائع الفول هذا ، حَصَرْتُكَ على الفور صورة السمكة المقددة المملحة ، فى قوامها الضئيل الأعجف . . . إنه ليبدو خلف القدر جهماً عبوساً معروق الوجه ، غزير الحاجبين ، معقّد الجبين ، لا يفتأ يزجر ويزمزم لداعية ولغير داعية ، كأنه فى ذلك الحانوت عاصفة حبيسة لا تستطيع البراح !

كان بديهاً ألا يأتلف الرجلان : « بوذا » عميد الأطفال ، وبائع
 الفول العبوس ، فاستوثق بينهما تنافر كظيم كأنما هو بينهما سر دفين ! ..
 وكيف يأتلف روحهما ، وذلك « بوذا » يتحلق حوله الأطفال صباح
 مساء ، على حين أن بائع الفول لا يطيق لطفل مرمى ، ولا صبر له على
 ما يبدي الأطفال من تصايح ومعايشت ؟ ! .. لقد عاش بائع الفول
 عزباً لا أهل معه ، ولا عهد له بتلك البيئة التي تظلمها حياة الأسرة ،
 ويشيع فيها دفء التعاطف والتعاون والحنان .

والطفل مجبول على الكفاح والاقتحام ، ولوع بالتغلب على من
 يحسبه خصماً له ، فهو دائب المناوشة لمن يظهر له التنكر ، ويبدى له
 العداوة والبغضاء . ومن ثم كان أطفال الحي أحرص ما يكونون على أن
 يتوخوا بائع الفول ، يعاكسونه ما وسعهم أن يعاكسوه ، وكلما ازداد الرجل
 انتهاراً لهم وإيذاء ، ازدادوا من تهجم عليه وعدوان .

فأما موقف « بوذا » مما كان ينشأ من هذه المعارك فهو موقف
 المرتقب الصموت الذى لا يفوته مما يحدث قليل ولا كثير ، ولكنه يتلقى
 ما يكون ببسمة غامضة تحجب وراءها مختلف المعانى والإحساسات .
 فإذا أصاب بائع الفول طفلاً بسوء ، فزع الطفل إلى « بوذا » فى جحره ،
 تسبقه دموعه ، فيلقى بنفسه فى حِضن وثير ينعم فيه بدفء الأبوة الشامل ،
 وحنانها السمع . . . وقد يمر بائع الفول بجحر « بوذا » ، فيرى الأطفال

حواليه أسراباً تتعلق به ، فيبعث إليه بنظرة نكراء حامية ، ثم يبصق أمامه في عنف ، ويحث قدميه في تنفخ وكبرياء .

توالى المشاجرات بين الأطفال وبائع الفول ، واستحكمت بينه وبينهم حلقات النزاع ، حتى حدث ذات يوم أن ثارت نائرة الرجل ، فرفع هراوة غليظة في يده ، وأهوى بها على رأس طفل شغوب كان يتقدم جمع الأطفال ، فأحدثت في رأس الطفل شجرة دامية ، تعالى منها صراخه . . . فاندفع إلى جحر « بوذا » يلتمس عنده الغوث ، وكان هذا الطفل فاقداً أبويه ، أثيراً عند « بوذا » ليطمه وفاقته ، فتلقاه بفيض من التحنن والإشفاق ، وأقبل عليه يُضمّد جرحه ، ويوليه أكبر الرعاية والتعهد . ولم يكد الرجل القعيد يرى دم الطفل قانياً يسبح على وجهه ، حتى انكسفت ابتسامته المطبوعة ، وحلت محلها سحابة من الكآبة والقطوب . وما لبث أن تراءى فمه تسرى فيه رعشة ، وأسناناه من خلف شفثيه تصرّ . وعينه تختلس نظرة خاطفة إلى بائع الفول في حانوته ، نظرة فيها شواظ من نار !

وأَمْضَى « بوذا » بقية يومه مطبق الجفنين ، يحسبه من يعبر به أنه قد ملكته إغفاعة ، ولكنك لو دققت النظر فيه للمحت على وجهه خلجات تنتابه ، كأنها فقااعات الهواء تتبدى على مِرْجَلِ حَسْبِيس يَغْلَى ويمور ! وفي جوف الليل الهيم خلا جُحْر « بوذا » من صاحبه ، ساعة أو

بعض ساعة ، ثم عاد الرجل إلى وكره ، يللم كرشه ، ويجرّ جسمانه في خطوات ثقّال ، يريد أن يبلغ مأمّنه قبل أن تُسفر عنه بارقة الفجر . وما لبث أن ألقي بنفسه في البحر مجهوداً يتنفس الصُعْداء ، وسرعان ما أطبق عليه سُبات ، تسبح على وجهه ابتسامته الخالدة ، رمز الرضا والاطمئنان .

وفي رونق الضحى كان أهل الحىّ جميعاً يتناقلون النبأ المفزع ، نبأ مقتل بائع الفول في حجرته القائمة خلف حانوته ، فتجمّع الناس بباب الحانوت ، يعلو بينهم اللغط ، ويذهب بهم الظن والتخمين كل مذهب ، وهم بين الفينة والفينة يشرّبون محمّلين إلى الباب ، يحاولون أن يستكفوها سرّ الأمر العظيم !

وتقاطر الشرطيون ومن إليهم من حُماة الأمن ، في أرويتهم المتميزة ، وشاراتهم الساطعة ، وهم غادون رائحون يضربون الأرض بخطا مرهوبة لها وَقَع الإمرة والسلطة والتهديد . . .

وهناك ، في البحر الخسّرب ، كان « بوذا » يتربع بجسمانه المترهل ، وجلسته المسترخية ، يتوآب عليه أطفاله ، وعلى حِمّاه ابتسامته الرحبية ، لا يُعنى به أحد !

الفأرة

كادت تُتم السابعة من العمر ، ولكن من يراها لا يعدو بها الرابعة ،
فهى ضئيلة الشخص ، قميئة القامة . وهى دكناء البشرة ، إلى السواد
أقرب ، والناظر إليها لا يدرى أذلك لون بشرتها حقاً ، أم هو ما يعلّق
بها من غبرات ومقاذر ؟ ولقد زاد فى دُكتنها ما يجثم على رأسها من
شعر شديد الفحومة مفلّس جعد . وإنها لمهزولة الأوصال ، مصوّحة
الأكناف ، حتى لتبدو أضلاعها بارزة خلف المزقة المرقعة التى اصطاح
الناس فى تسامح على تسميتها بالجلباب .

متى سألها سائل : مَنْ أبوك يا صبية ؟ أجابت ساذجة اللهجة ،
فى خوف فطرى : لا أعرف . فإن سُئلت : مَنْ تكون أمك ؟ أمسكتْ
بطرف مزقتها تفكره بين أناملها ، ناظرة إلى عُرض الطريق ، ملقية من
عينها الطافتين نظرة شاحبة لا تفصح عن شىء ، وتغمغم : لا أعرف !
وربما أثارت إجابتها فضول السائل ، فأراد أن يُطيل معها الحديث ،
فيقول : وأين تسكنين ؟ فإذا هى تشير بيدها المعروفة إلى بيت واهن
يكاد يختنق فى زحمة الدور ، وتقول فى لهجتها الراتبة : هنا .

أجل ، هناك في الشِّقَّة الأولى من شِقَقِ هذا البيت تقيم تلك الصبية ، لها مكانها المختار ، تأوى إليه كل عشية . . . وإنه لركن النفايات والفُضالات خلف الباب ، على أرضه تلمس راحة الجسد ، ومنه تطلق لأخيبتها الطفولية العنان .

وما كانت الصبية لتستطيع أن تظفر بهذه الراحة إلا بعد هُدأة من الليل ، حين تفرغ من أعباء الخدمة التي تكلفها إياها سيدتها ربة البيت : عجوز عجفاء ، كأنها عود أيسر وانحنى . . . وكانت امرأة شوه الله خلقها ، فبدت حامضة الطبع ، سبابة سخابة .

فأما الصبية فكانت تدعوها : خالتي . وأما العجوز فكانت تلقب صبيتها : الفأرة ! ولقد صادف هذا اللقب من جيرة الحى قبولاً ورضاً ، فنوديت الصبية به ، حتى وَعته واستجابت له ، وسرعان ما تزايل من ذاكرتها اسمها القديم ، مُدْرِجاً في معالم حياتها الماضية .

أيكون لها ماض كما هو شأن كل إنسان ؟ أم تُتراها نبتت في هذه البقعة كما ينبت الطحلب الأخضر في الماء الآسن على مقربة من البيت ؟ وماذا يعينها من هذا كله ؟ وهي تجد في ظل تلك العجوز الحيز بؤن كفافاً من قوت ، ولها اسم كسائر الناس تعرف به ، وإن كان هذا الاسم هو الفأرة . ولم لا يكون اسمها الفأرة ؟ وكيف يكون هذا الاسم بغيضاً إليها وهي لا تكره هذا الضرب من مخلوقات الله ، بل إنها لتعطف عليه ، منذ

استوثقت روابط التعارف والألفة بينها وبين فأرة صغيرة تشرّكها في الشقة
مكانها المختار خلف الباب

ولكل ألفة سبب ، ولكل تعارف بدء .

في أمسيّة من الأماسي كانت الصبية في ركنها منكشة على حصيرها
البالي ، وقد أخذ النوم يُرتّق في عينيها ، وما هي إلا أن أزعجها ديب
عن كذب منها في كومة الفضالات. فأحدّت النظر ، وأرهفت السمع ،
ولبت تستبين الأمر على قلق ، وإذا الديب يشتد ، وإذا النفايات تتناثر ،
وعلى شعاة واهنة من مصباح النّفط الأغبر المعلق على الجدار ، تجلى
رأس صغير أسود تبرّق فيه عيان على حذر وترقب . فأدرك الصبية
الفرع ، وهمت أن تصيح ، ولكن لسانها اعتقل ، وصوتها اختنق ،
وأوصالها شلت ، إلا قلبها فهو يرجف ، وإلا حدقتها فهما ثابتان ترُمقان
رأس الفأرة المترنح .

وبرزت الفأرة من الكومة ، تنفض عن نفسها غبار الفضالات ،
ومدّت أنفها المستدق المنساب يتشمّم ، وشعيرات شاربها تتذبذب وتراقص ،
وصادقتها كسرة عفنة ، فأمسكتها بين يديها في شغف ، ولبت تقرضها
في نهم ، والصبية في مكمنها قابعة يصطرع بين جنبها خوف وفضول ،
وطغت عليها نزعة التطلع والتعرف ، فأورثتها شيئاً من السكينة ، فبقيت
تنظر إلى الفأرة وهي مقبلة على الكسرة تطعم منها ما تطعم ، وندّت منها

حركة على غير قصد ، فوثبت الفأرة ملقية بنفسها في رُكّام الفضالات وما أسرع أن توارت في طواياه ، غير مبالية بالكيسرة التي لم تقضم منها إلا القليل .

وسنحت على مُحِيّا الصبية مخايل ابتسامة ، وانسحرت تفكر : أترى الفأرة خافت منها ؟ ألم تسرع بالفرار حين أحست وجودها ؟ ... ويا عجباً ! ... أئمة كائن في هذه الدنيا يخشاها ويحسب لها حساباً ؟

واسترسلت الصبية في نجواها ، وعيناها لا تبرحان الكسرة العفنة ، لا مِرِيّة أن الفأرة تتصور من جوع ، ولولا أنها كذلك لما أقبلت على هذه الكسرة ، وارتضت أن تتخذ منها مُضغّة ، فعما قليل كانت الصبية نفسها تقلب وتنقب في تلك الشُّفايات المركومة ، بغية أن تصيب فيها شيئاً تتبّاع به ، شأنها كل عشية حين تحسّ عَضّة الجوع ، فما صادفت في ليلتها إلا تلك الكسرة العَفِنَة ، فلم تسوِّغ لها نفسها أن تأكلها ، وآثرت عليها أن تَبَيّت على الطوى . فما لهذه الفأرة الساربة لم تأنف أن تأخذ من الكسرة قضمّة بعد قضمّة ؟ إنها إذن لأشدّ من الصبية مَسْغَبَة ، وأحوج منها إلى زاد .

ولكن ما بال تلك الفأرة الصغيرة تمضى بنفسها يَمَنَة ويسرّة لبحث عن طعام ؟ أليس لها أم تكفلها فتكفيها مَنُونَة البحث والتفتيش ؟ إن الصبية لتعلم مبلغ عناية الأمهات بأولادهن ، فهن يسعين إليهم بالطعام ،

بل لمنه لَيُطْعَمَنهم بأيديهن إطعاماً وإن كانوا على شبع . . . الفأرة الصغيرة حتما لا تعرف لها أباً ولا أمّاً ، كشأن الصبية سواء بسواء . وإن هذه الفأرة لينال منها الجوع ، فتتقّب في الفُضالات عن شيء يُمسك الرمق ، مثلما تفعل الصبية سواء بسواء ، فما أشبه الحال بالحال ! . . . ولبثت الفأرة الإنسانية مستغرقة في نَجواها وقتاً ، حتى ترزع رأسها ، فاستلقت على مرقدها تستكمل النجوى في مرتع الأحلام .

وُشغلت الصبية في غدها بما يُلقَى عليها من أعباء خدمة البيت ، واستوفت حظها مما تخصصها به سيدتها الحيزبون من صفع وركل وسباب .. وفي العشيّة أطلق سراحها ، فلاذت بركنها خلف الباب ، وعمدت إلى طيات ثوبها تخرج من بينها لقيسمة ألقت بها في الزاوية التي لحت فيها فأرة الأمس ، وتمددت على حصيرها ، ولكن لم يغمض لها جفن ، وظلت قلقلة أرقّة ترهف السمع وتحدّ البصر .

وبعد حين سرت في قلبها رجفة ، إذ تناهت إلى سمعها نامة . وما هي إلا أن تجلى الرأس المنساب يتشمم في محاذرة ، وشعيرات شاربه تراقص ، ولم يطل بالفأرة البحث والنكت ، فقد وجدت اللقيمة منها قريية المنال ، فأكبّت عليها تُعمل فيها قوارضها منهومة شَرِهة ، والصبية رائية إليها في احتياج مشبوب ، وملء نفسها نشوة وارتياح . . . لقد استطاعت أن تبلغ مأربها من إطعام الفأرة الجوعى !

وطاب للصبية أن تشهد الفأرة وقد أتت على اللقيمة لم تترك منها فتية ،
فما أسرع أن قذفت لُقيمة أخرى أصابت هدفها أمام الفأرة ، فنكصت
الفأرة على عقبها يملكها الذعر ، ولكنها ما عثمت أن عادت تعكف
على اللقيمة فتعمل فيها قوارضها تفتيتاً وقضماً ، على حين ترسل من عينيها
البراقتين إلى الصبية نظرات حذر واستطلاع ، والصبية رانية إليها وهي
فرحانة طروب . . . واستوت الفأرة على ذيلها تمسك بما بقي من اللقيمة
بين يديها الدقيقتين ، وكأنها تحاول أن تطيل أمد المتعة بالطعام . . .
وما كان أروع من مشهد استخف الصبية ، وبعث فيها هزة وغبطة ،
فبدرت منها ضحكة ما كادت تبلغ سمع الفأرة حتى سارعت إلى الفرار .
فعاجل الصبية أسف ممض ، وراحت تسأل نفسها : أكان اختفاء
الفأرة عن غضب ؟ أترى الفأرة أحست أن الصبية تسخر منها ، فأنتفت
أن تكون مثار سخرية ؟ أم تراها استخفت بباعث من خوف ، إذ أساءت
بالصبية الظن ، فتوقعت أن يكون منها أذى ؟ . . . مخطئة هذه الفأرة في
كلتا الحالين ، فما سخّرت منها الصبية ولا أضمرت لها الشر . . . ألا ليت
الفأرة تعلم كيف تشفق عليها الصبية وتوليها صفواً من ود وإيناس !
وتواردت الأيام ، والصبية لا تفتأ تبذل جهودها في ابتغاء مرضاة الفأرة
النَّقُور ، وتوكيد ما تحسّه لها من ألفة وحب . . . لقد استبان لها وشائج
تربطها بهذه المخلوقة الصغيرة ، ففي حياتهما مشابهة واضحة ، وفي نصيبهما

من العيش تماثل مشهود !

طاب للصبية أن تقضى في صحبة الفأرة هزيعاً من الليل ، ولشدّ ما كانت تستشعر السعادة الحقة في تلك السهرات الأنيسة ، والدار من حولها في وحشة وحلكة وصمت . ما أجزله تعويضاً عما تلاقيه في يومها الأطول من شقوة وعناء في خدمة سيدتها الحيزبون ، ذلك العود اليابس الأعوج ، ذلك العظم النّخِر الذي يكسوه جلد شائه . . . كيف تزجي الصبية ساعات يومها الأنكد ؟ إنها لتلبث في الدار تصعد درجها وتهبط ، وتجول في أرجائها وتدور ، لا هواة ولا قرار . . . شبيهة هي بالدّوامة التي يلهو بها الأطفال ، تلك الهناة التي يلفون عليها الخيط طاقات ، ثم يجذبون خيطها في شدة ، على حين يقذفون بها على الأرض ، فلا تفتأ تدور حتى إذا فترت عن الدوران انهار عليها السوط يلهبها فتعود دائرة ، وما يزال أمرها كذلك حتى يسأم الأطفال ، فيتركوها صريعة الإعياء . . . أليست هذه الصبية دّوامةً حيّة ، تتقاذفها الشياطين الآدمية من سُكّان البيت ، وعلى رأسهم سيدتها الحيزبون ؟ فكيف لاتحس دّوامة البيت برّد الراحة والدعة في صحبة الفأرة الحبيبة ساعةً من ليل ؟ !

كانت الصبية تدّخر من طعام اليوم ما يتسنى لها أن تدخر ، أهبةً لذلك اللقاء الليليّ البهيج ، فإنها كليلدّ لها أن تطعم ، وعن كُثْب منها أليفتها الصغيرة ، تلقى إليها في الفينة بعد الفينة فُتاتاً مما تأكل ، فإذا هما

تطاعمان في هناة واستمراء .

وعلى مدّ الأيام استوثقت بينهما المودة ، فلم تعد الفأرة تخشى من الصبية سوءاً ولا أذى ، وإنها لتتداني منها لتصيب مما بين يديها من طعام ، وإنها لتسرح أمامها وتمرح ، وتقفز هنا وهناك لاهية عابثة ، كأنها ألعبان يعرض على المسرح طريف معابثاته ، ليغم رضا جمهوره ، والصبية تسايرها بعينها في بشر وابتهاج ، فإذا قضت الفأرة مأربها من اللهو واللعب ، قبعت غير بعيد من صاحبها تحدّق فيها بعينين براقيتين ، وشاربها يهتر ، كأنها تقول لها : لقد قدمت لك ما عندى ، فهل عندك من شيء تقدمينه إلى ؟ وثمة تستوى الصبية على حصيرها في طمأنينة وارتياح ، وتسامر الفأرة بما شاءت أن تسامرها به من قصص ونوادر وأفاكيه ، طوراً تستعين ذاكرتها فتنفّض ما وعته مما وقعت عليه عينها من أحداث ، أو اقتنصته أذنها من أحاديث ، وتارة تستدرّ خيالها الساذج ، فتبني به أبراجاً عالية في دنيا الأحلام ، تصوغ فيها ما تستقبل من أيام .

على هذا النحو توالى الأماسى بالصبية في متعة وصفاء ، حتى كان يوم استدعتها فيه سيدتها الحيزبون ، وطلبت إليها أن تصعد من فورها إلى الطبقة العليا من البيت ، لتقوم على تمرّيض جارة قعد بها المرض ، ولا تجد من عون . ولم تملك الصبية إلا الطوع ، وكانت الجارة تشكو داء المفاصل ، لا تستطيع أن تبارح مرقدها البتة ، وإنها لتتقلب على فراشها

في عُسر ، فكأنما شُدت إليه بمسامير غلاظ تشبّت في العظام واستقرت ،
فهى تتلوى ، مرسلّة الآهة في إثر الآهة ، والصبية حيالها شاخصة البصر
إلى وجهها المتقلص ، تدوّى في أذنها صيحات التوجع والضجر . فإذا
أدركت المريضة إغفاءة ، وانقطع الصياح والتأفف ، وترايلت الحركة
في الحجرة ، أحست الفتاة وحشة طاغية ، وساورتها خشية وذعر .
وكثيراً ما خامرت الصبية شكوك وأوهام ، إذ ترى أمامها تحنة ممتعة تتزاحم
فيها التجاعيد ، وشحوباً شديداً عليه سياء المارة والعذاب وعينين تنفرج
أجفانهما شيئاً فيصصّ منهما شعاع كاسف هزيل ، وفماً فاغراً نافر الشفتين
تهبّ منه أنفاس مبهورة كأنما هو شيقٌ موحش ينبعث منه فحيح . . .
فتسائل الصبية نفسها : أتراها بين يدي مُحترقة تنتظر من يُلدى بها إلى
غِيابة القبر ؟ أم تُراها في حضرة جنية أفلتت من عالم الرهبة والسحر ؟
وإن الصبية ليعتلج في دخيلتها دافع الهرب ، ولكنها تجد نفسها مشلولة
الحراك ، لا تملك الفكاك !

وأكبر ما كان يشغل الصبية أنها قد فارقت أليفها الفأرة ، وأنها قد
تخلّفت عن مواتها بالطعام كل عشية . ترى هل تُسىء الفأرةُ بها
الظن ، فتد غيبتها إلى الإهمال والنسيان ؟ أم تراها عليمه بما يجري في الدار
من أحداث ، فتلتمس لها عنراً فيما كان ؟ . . . وطالما حاولت الصبية أن
تسلل في جنح الظلام إلى مثابتها المعهودة ، لتلقى رفيقها الحبيبة ، وتقدم

لها ما يتيسر من مأكل ، وتقضى معها فترة تتناجيان وتسمران ، ولكن المريضة كانت تحيا حياة الخفافيش : سهد آناء الليل ، وغفوات أطراف النهار ، فلم تفلح الصبية فيما رصدت من فرصة ، ولم يُسَح لها أن تتفقت ، وظلت موصولةً بمضجع المريضة تنشد الخلاص ، ولات حينَ مناص ! وبكرةَ يوم ، والصبية على حالها بجوار المريضة ، إذ صافح سمعها في الدار جلبة وعجيج ، وهرج ومرج ، فلبثت تترقب وتسمع ، وإذا هي تغادر الحجرة واثبة تتطلع ، وأطلت من مسقط الدرج فرأت في أسفل الدار جمعاً من السكان والجيران ، أكثرهم أطفال تعلو أصواتهم الرنانة على سائر الأصوات ، وتطغى جلبتهم على جلبة الرجال والنساء ، واستطاعت الصبيّة أن تصيد كلمات ترددها سيدتها الحيزبون :

لقد أمسكتُ بك أيتها الشغوب . . . لن تفلتي من يدي !

وما هي إلا أن تهاوت الصبية على الدرج ، يستبدّ بها باعث من فضول ، واستبان لها الحشد المتدافع ، وتوضحت لها كلمات السيدة الحيزبون ، وهي تقول : لم تدعي لى ثوباً إلا أنلفته ، ولا طعاماً إلا سطوت عليه . . . كلتقين جزاءك يا شقية !

وارتقت إلى سمع الصبية صأصأة ليست على أذنّها غريبة الوقع ، صأصأة ذهبت أصدأوها في ضجة من التضاحك والصياح . . . وانتظمت الصبية رعشة ، وحثت خطاها إلى منتهى الدرج ، وكان الحشد قد زایل

الدار إلى الحارة ، وارتد خلفهم الباب ، فثلث البنية ورائه تسترق النظر من خصاصيه ، وما عتمت أن فتحتة ومضت خارجة ، وانفجرت ثغرة في الحشد الملتف حول السيدة الحيزبون ، فنفذت الصبية من الثغرة فإذا هي تلمح في يد سيدتها ميدة تضطرب فيها هناة سوداء لا يقر لها قرار ، تصدّها أسلاك المصيدة كلما تلمست وجه الفرار .

واشدّت بالصبية الاهتياج ، واستشعرت قبضة من حديد تضغط رقبتها فتخمد منها الأنفاس ، وسرعان ما اندفعت تشرّبت وتحدّ بصرها في المصيدة لتستبين الأمر على جليته ، وشقت الزخمة صوب السيدة الحيزبون ، فواجهها على الفور رأس دقيق ، وعينان تزهزان ، وشارب يهتز ، وكان الرأس أشعث الشعر دامياً لا تكاد معالمه تتجلى وتلاقت النظرتان : نظرة البنية ونظرة الفأرة . واسترعى انتباه الصبية أن الفأرة قد أمسكت عن اللف والدوران خلف الأسلاك ، وأقبلت عليها تحدّق إليها ، وسمعتها الصبية تعلو بصا أصواتها في لفحة المستغيث ، فألقت بنفسها هاجمة على المصيدة في تهور ، ولكن الجمع أحدقوا بالسيدة الحيزبون ، فاستخفت المصيدة عن عين الصبية ، وظلت صا أصاة الاستغاثة تتردد أصداؤها في ذلك الجو الخنثق !

وانبرى صوت الحيزبون يقول : هاتوا النفط لنشعل النار في هذا الحيوان النجس . سنطلقه مشتعلاً في الحارة . منظر شائق يا أطفال !

وتبادل الأطفال صياح التهلل ، والصبية مخلدة إلى باب الدار ترتجف ،
والدمع من مآقيها يَسُحّ .

وامتدت يد إلى الحيزبون بزجاجة النفط ، فقطرت منها المرأة على جسد
الفأرة قطرات ، وصاحت وهي تقدحُ عود الثقاب : أغلقوا أبواب الدور ،
حتى لا تسرُبَ الفأرة إلى إحداها فتصيبها النار .

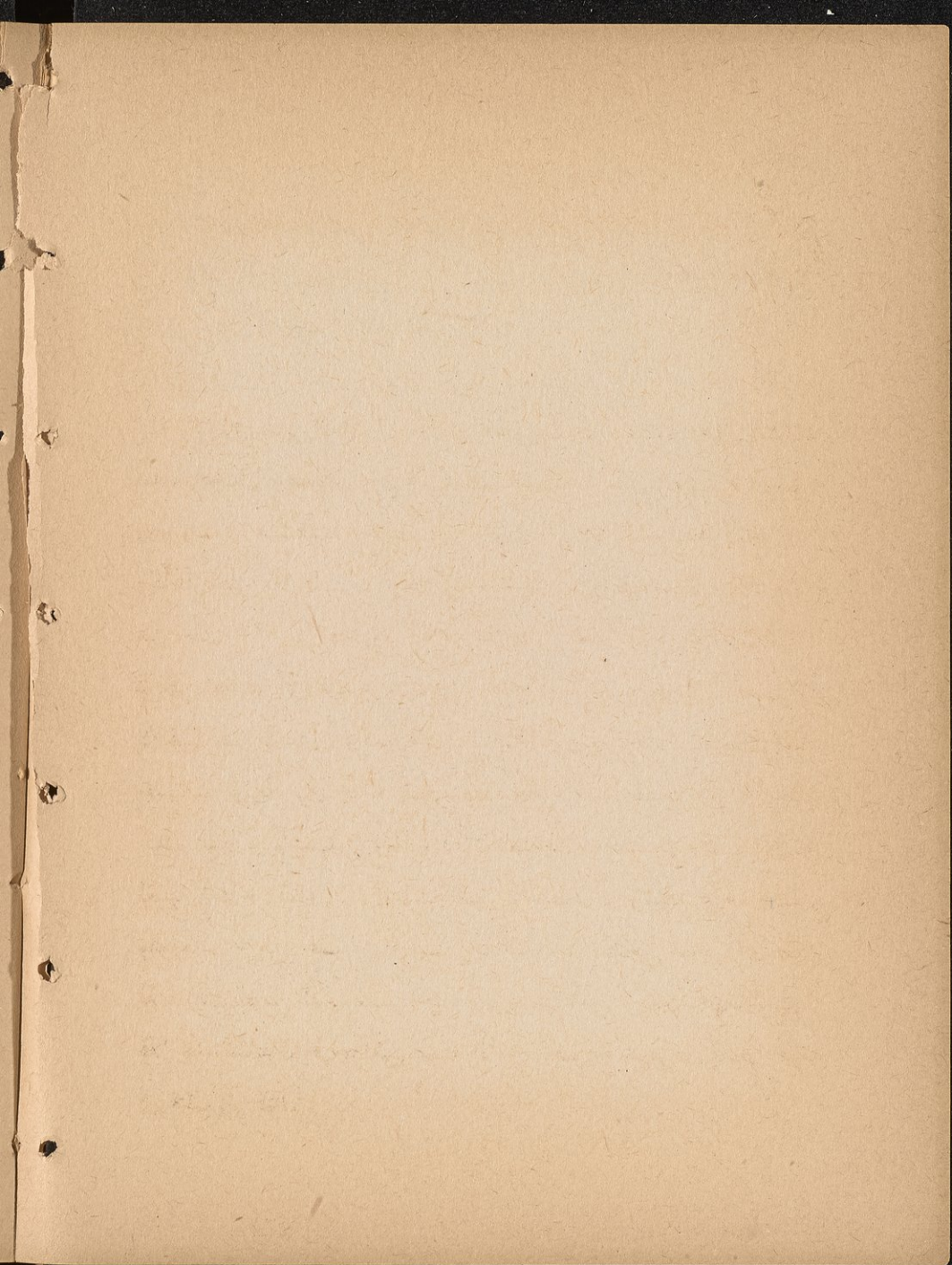
وأغلقت الأبوابُ على الأثر . . . وشاهد الحشد كرة من النار ملتهبة
تنطلق من المصيدة في شرود وجوح ، والصبية بجوار الباب تلاحق
الكرة بأنظارها ، وكأن قبسة من النار قد أصابت جسدها فأضرمت فيه
اللهب . . .

وأبصرت الصبية كرة النار تتجه صوبَ الدار ، فامتدت يدها على
القور تدفع الباب ، وما أسرع أن مرقت الكرة منه ، فتبعها الصبية ،
وتعالى صوتُ السيدة الحيزبون بالسباب والوعيد ، وتحاملت على نفسها
تدفع بخطاها ما وسيعها أن تدفع ، وما إن دخلت حتى ارتدّ الباب خلفها
مقفلاً .

وسرّت في الحشد سارية من الدعر ، فتجمعوا حول الباب يحملقون ،
وقد انعقدت ألسنتهم في حلوقهم لا ينبسون . وارتفعت الأصوات دفعةً
واحدة تصيح :

النار تأكل الدار !

وتقدمت امرأة تجرُّ ملاءتها وتقول :
 إياكم أن تقربوا الدار . . . ليست هذه الفأرة إلا حيواناً مسحوراً
 يتلبس بجسده عفريت من الجن الأحمر !
 فشاعت في الجمع همهمة مفزعة ، واشتد في الدار اندلاعُ النار ،
 وارتجت فيها أصوات الاستغاثة ، دون أن يجرؤ أحد على أن يقترب .
 وتلظت النار تزار ، فيردُّ زئيرها الفضاء !



هنا

كان في غابر الزمان ، وسالف العصر والأوان ، سلطان عظيم الشأن ،
شديد العسف والطغيان . . . عاش قوى الشوكة ، عظيم الصولة ، ذا بأس
وجبروت ، مشغولته الحربُ تلو الحرب ، وهمه الفتحُ بعد الفتح . . .
وكأنما تُخلق بلا قلب ، أو لكأن قلبه لا تسرى فيه عاطفة ولا يخفق
فيه حب . . . في قصوره الباذخة مقاصير تحفل بالحواري الفاتنات ،
لم يكن يجد لهنّ في قلبه هوى ، فهنّ عنده أشبه شيء بسحائب الصيف ،
لا غيث فيها ولا رى . وكلما ازداد السلطان من مجد وجاه ، تقطعت نفسه
حسرات ، إذ يرى حياته شجرة مصوَّحة ، ليس لها من ثمر . . . لقد
كان عقيماً ، لم يشهد له ولداً ، فكان يستشعر الوحدة والوحشة ، وتترأى
لعينيه أشباح الفناء . . . وعلت السن بالسلطان ، واشتعل رأسه شيباً ،
وهو ما برح من عُقمه في جذب وجفاف ، لا تكتحل عينه بمرأى طفل
له ، ذلك الغرس الذي ينضّر الحياة ، ويجدد الأمل ، ويعيد عهد الربيع .
فلا يجد السلطان فرجاً من ضيقه إلا في حوْمة الوغى ، يُقحم نفسه
في قتال إثر قتال .

ووقف القدر في مَرَّ قَبْتِه العالية ، يرصُّد ذلك السلطان في مغامراته
ومخاطراته ، وقد استهواه شأنه ، واستثار شغفه ، ففرغ له يُوليه نظرة
الاهتمام . . . وتطلع القدر إليه بوجهه الأشهب الخروط ، وهو يداعب
لحيته الحريرية الناصعة ، يقتل شعراتها بأطراف بنانه ، كأنه يُدير منها
مغزلاً يستخرج منه خيوطاً دقيقة بالغة الدقة ، متينة شديدة المتانة . وما
إن تجمعت في يد القدر طائفة من هذه الخيوط ، حتى قذف بها في
الهواء ، فتناثرت شباكاً ما لبثت أن هبطت على فتاة تقتنصها في رفق . . .
وتهادت الشبكة بما حملت من صيد تقصد مستقر السلطان ، فإذا هي
تضمه إلى الفتاة جنباً إلى جنب !

كانت فتاة القدر مغمورة الأصل ، غير نابهة الذكر ، بيد أنها
موفورة الحظ من وسامة وحسن ، فتعلق بها السلطان أيما تعلق ، وفتح
لها مغاليق ذلك القلب الأغلف الذي لم يكن من قبل ، واتخذها معه
شريكة له ، فكانت سلطانة لا تدانيها في مكانتها المرموقة امرأة . . . وأقبل
عليها السلطان يهبها وقته كله ، وانصرف عن تدبير المعارك وخوض المعامع
إلى مساقاة زوجه كأس الهناءة ، ومطارحتها متعة الحب والهيام . . . ولقد
طابت نفس القدر بهذه الألعوبة الطريفة التي أحالت « سلطان الزمان »
حليف هوى ، وصريع افتتان ، فلمعت على محيّا القدر ابتسامة غريبة
تنطوي على سر . . .

وانتهى إلى علم السلطان ذات يوم أن زوجته قد أصبحت ذات حمل ،
 فاستخفه الفرح بهذا النبأ ، وازداد لحسنائه من حفاوة وتنعيم . وترادفت
 الأيام ، و « سلطان الزمان » يتأهب لاستقبال وليده المرتقب بما هو أهل
 له من ترحيب وإعزاز . واحتبس الرجل في مقصورته يوماً يعرض مختلف
 الأسماء ، ليصطفى من بينها اسماً كريماً لذلك الوليد المحظوظ ، فوقع اختياره
 على اسم « هاني » ، ولا غرو أن يسميه « هانئاً » وهو الذي يتقدم رمز
 هناء لأبيه وأمه ، وبشرى سعد للرعية أجمعين . ليكون هذا الوليد بدءاً
 لعهد جديد تنعم فيه بلاد السلطان بظل وارف من رفاهة ورخاء .

وقد استيقن الأب أن وليده لن يكون إلا ذكراً . . . وكيف لا يُرزق
 سلطان السلاطين غلاماً يتلقى راية المجد من أبيه ، فيقفوه ويحتذيه ؟
 وأراد السلطان أن يتخذ للأمر عدته ، قبل وقته ، إمعاناً في التحوط ،
 فراح يستشير الكبراء والقادة ، وهو يرسم لوليده خطة تنشئة ، ودستور
 تربية ، حتى يشب الوليد مثلاً عالياً لشجاعة النفس ، وعلو الهمة ،
 وابتناء العظام . . .

وكرت الأيام لا يفتأ فيها القدرُ راصداً لبیت السلطان ، وعلى فمه
 ابتسامته الغامضة ، ترف ولا تشف عن السر الدفين !
 ووضعت السلطنة حملها ، فكان أنثى . . .

وهبط النبأ على رأس السلطان مهبط الصاعقة ، فأمر بنقل الزوجة
 (٨)

إلى مكان من القصر بعيد ، ولم يشفع لها ما كان بينه وبينها من حب
مكين ، وودّ صميم . وأبى السلطان أن تقذَى عينه بمراى تلك الأثني
التي تطفلت عليه ، تنعى ما أمل ، وتسخر مما دبر .

وواصلت الأيام سيرها الدعوب . . . وتذكر « سلطان الزمان » أيام
هناءته في كنَف زوجته ، وعبرت قلبه سائحة من حنين ، فرغب في أن
يقصد إلى تلك الأم المغضوب عليها بلا جريرة ، ليرى طفلة في كنفها
ناعماً بهما ساعة من نهار . وفيما هو يجتاز وحيداً دهاeliz القصر الممدودة
المعتمة ، متوخياً ذلك الجناح القصي الذي نُفيت فيه زوجته ، تجلى له
وجه أشهب مخروط ، ذو لحية حريرية ناصعة ، كأنها مغزل ، وابتسم
الوجه يقول : على رسلك يا « سلطان الزمان » !

فشده السلطان ، وجعل يحدق في الوجه البادي حياله ، وشدّ يده
على مقبض سيفه ، فتابع الوجه بالاسم قوله : أنصت إليّ ، لعلك متفجع
بما أنا قائله . . . إن طفلتك آية ملاحه وجمال ، ولكن يعوزها شيء
لا بد منه . . .

فاشتدت ذهلة السلطان مما رأى وما سمع ، وأطال تحديقَه إلى ذلك
الوجه ، وهو يهمهم : ماذا يعوزها ؟

— الإبصار . . . إنها عمياء !

وأسرعت يد السلطان إلى السيف تستله من غمده ، وتهوى به على

ذلك الوجه ، ولكن السيف ارتطم بالحدار ، فارتدّ مثلوماً ، ولم يبق من الوجه إلا بریق نظرات تترايل ، وأصداء ضحكات تتضاءل ، فلبث السلطان هنيهة يتلفت حوله ، والهيسجة آخذة منه كل مأخذ ، وخطر بباله أن ما شهدته الساعة ليس إلا ضرباً من عبث الشياطين ، بل لقد ذهب به الظن إلى أنه لم يكن إلا وهمّاً من الأوهام . وأراد أن يتابع خطاه إلى مخدع الوالدة ، ولكنه ألغى قدميه تعودان به القهقري إلى مقصورته . . . وما هي إلا أن جعل يتعرف ويتقصّى ، حتى استبان له أن الحقيقة ما أفضى به ذلك الوجه الذى صادفه فى الدهليز .

يا لها داهية دهياء ! أتكون ابنة سلطان السلاطين فاقدة البصر ؟ وبلغ منه التغيط والالتياح أشدّ مبلغ ، فألقى أمره إلى حاشيته أن ينقلوا الزوجة إلى جناح الخدم ، فقد ضاق « سلطان الزمان » ذرعاً بتلك المرأة التى فقدت على يديها أمله المنشود ، والتى تمخضت عن طفلة عمياء يلقي منها سبّة الأبد ، ويشقى بتعمير الناس !

وكرت الأيام تلاحق الأيام . . . وتناثرت إلى السلطان طرائف أنباء تتوآصف ما منح الله تلك الوليدة من بهاء وفتنة . . . ويوما شعر السلطان بأن ذلك الصراع الناشب بين كبريائه وبين عاطفته لزوجته وابنته قد خبا وأورّه شيئاً ، فحثّ خطاه إلى مخدع الوالدة فى مستقرها القصى . وبينما هو يعبر الدهاليز الممدودة المعتمة ، إذ اعترته رعشة ، وما هي إلا أن لمح

ذلك الوجه الأشهب المخروط ، فى لحيته الحريرية كأنها مغزل . . . فأمسك
عن السير تملكه الدهشة ، ويعصف به الغضب ، وصاح قائلاً : أنت ؟
فأجاب الوجه رزين اللهجة ، وعلى ثغره ابتسامته الغامضة :

أنا . . . أنا دائماً . . . جئت اليوم أحمل إليك نبأ يا له من نبأ !
فأعلى السلطانُ صوته يقول :

اغرب عن وجهى ، فلستُ إلى أنباءك بحاجة .
— إنه لنبأ عظيم ، وأنت إلى معرفته مفتقر ، ولكنه نبأ ينطوى وأسفاه
على معرة وخزى !

فالتفت عين السلطان تقدح ناراً ، واهترت يده على مقبض سيفه ،
وصاح : سُخِّقاً لك يا روح إبليس ، تجنب طريقى !

— لا أتجنب طريقك حتى أفضى إليك بما عندى من نبأ . . .
أوافق أنت يا « سلطان الزمان » أن طفلتك من صُلبك ! ؟

وجرد السلطانُ حُسامه يَشْهَرَه فى ذلك الوجه الوقاح ، وهو يقول :
بأى فرية تلغطُ أيها الكاذب الأفاك !

— لا أفترى عليك الكذب ، ولكنى أكشف لك ما خفى عنك .
أنى لك أن تُعقب وأنت عقيم ؟ !

وغامت الدنيا لعينى السلطان ، وتداعت قواه ، وكاد يسقط ، لولا
أنه أسند ظهره إلى جدار ، وراح يبدلُكُ جبينه ببطن يده ، فسمع

الوجه يقول وهو يتوارى عن عينه ، كأنه دخان يتخلخل في الفضاء :
عالجْ أمرك بحكمتك ، وجانب التهور والترق .

وثاب السلطان إلى رشده ، فرجع يهرع إلى الردهة الكبرى يضرب
الصنّج ، ويزار زئير الأسد المصُور ، فركض إليه الوزراء والكبراء والأعوان
مدعورين واجفين ، فأصدر السلطان أمره الحاسم الصارم أن يضعوا
السيف في تلك الزوجة وابنتها ومن يلوذ بها من رجال ونساء ، أقربين
وأبعدين !

وما كادت المذبحة تبدأ ، حتى كان « سلطان الزمان » في ذمة المنون .
فلقد أودت به تلك الهيجة العارمة التي أطارت له كل مطار .
وتقلد المملكة شقيق لسلطان الزمان الراحل ، كان على خلاف
مذهب أخيه في الحرب والضرب ، والغزو والفتح ، فأقصاه أخوه في
منفى بعيد ، عقوبة له على الاعتراض والانتقاض . . . فلما تولى الأمر
بعد وفاة أخيه ، أبقى إلا أن يبسط ظلال العفو والإحسان ، فوقف المذبحة ،
وردّ المظالم ، وكان بالناس أخيراً رفق ومرحمة . . . ويوماً ، وهو في مجلسه ،
يفصل في أفضية الخصماء ، استأذنت عليه امرأة بين يديها ليفة ، وما هي
إلا أن وضعت ليفتها عند قدميه ، وصاحت تطلب منه الأمان ، ثم
قالت وهي تولول : ما ذنب هذه الطفلة العمياء فيما جرى من المآسي الفاجعات ؟
فأجابها السلطان الحديد : من تكون هذه الطفلة ؟

فقال وفي صوتها رعشة : إنها « هناء » . . . بنت أخيك السلطان ! .
لقد لقيت أمها حتفها في غمار المذبحة ، وقد استطعت أن أنجي الطفلة
من القتل دون أن يشعر أحد .

وأزاحت اللثام عن محيّا الطفلة ، فسطع ضياء الألق تبعثه عينان
زرقاوان فانتتان !

فهمهم السلطان : تبارك الله أحسن الخالقين . . . لحكمة استأثر بها
علمُ الله ، نجت هذه الطفلة من يد القتل !

ونخفض بصره ، وقد طوّحت به الأفكار ، ثم رفع رأسه يقول للمرأة
حاسم اللهجة : لا تصابُ الطفلة بأذى . . . لأهبنّها ما يكفلُ لها معيشة
الرخاء والرغد ، ولكن يجب ألا تبقى في أرجاء السلطنة ، مهما يكن من
أمر ، فإنها ذكرى بغیضة لعهد بغیض !

وأمر السلطان بأن تُعدّ للطفلة وحاضنتها دابة محملة بألوان المئونة
والزاد ، وأن تُكفل حمايتها حتى تغادر تخوم المملكة في طمأنينة وسلام .
وتقاذفت الأصقاع تلك الدابة بما حملت ، والطفلة على صدر حاضنتها
تتفتح للحياة . . . وبعد لأي بلغت الحاضنة بقعة تتجافى عن العمران
في سفح الجبل ، فأثرت أن تتخذها مستقراً لها ومقاماً ، حتى تكون بمنأى
عن مزدهم الناس . . . لم يكن بهذه البقعة من أنيس ، وإنما هي أرض
بيكر ، وغابة عذراء ، تراهي فيها المروج الخضراء ، ويحترقها نبع سلسال ،

فيها يستطيع الإنسان أن يجد الظل والثمر ، فيحيا حياة الطبيعة الخالصة .
 أقامت الحاضنة كوخها على أديم هذه البقعة بين العرائش والغصون ،
 وعكفت على ربيبها تحسن تنشئتها ، وتوليها موصول التعهد والرعاية . . .
 وكانت هذه الحاضنة خيرة بالحياة ، وافرة المعلومات ، على فطنة
 والمعينة ، يعمر قلبها إيمان نقي ، لا تكلف فيه ولا مصانعة ، فأقبلت على
 الطفلة تبشها ما طُبعت عليه نفسها من كرائم السجايا والحصال . وكانت
 في كثير من الفترات تجلس إليها تُفتقُّ عقلها بمختلف المناقشات
 والمحاورات ، وتوسّع مداركها بما لها من خبرة ورأى ، وفوق ذلك كانت
 تزودها بحكمة العصور ، وأحداث التاريخ ، كما كانت تقص عليها
 أمتع القصص الخافلة بالأساطير ، تفكهة لها وتسليية .

درجت الطفلة على أرض الغابة ، كأنها جزء منها أنبتته الطبيعة التي
 أنبتت ما حوت هذه البقعة من أيك وغصون . . . وازدهرت الصبية على
 السنين بهية ناضرة ، تستشعر السعادة فيما يحيط بها من وسائل وأسباب .
 وحان يوم عرفت فيه الطفلة أنها تفقد شيئاً يتوافر لأكثر الناس ،
 ذلك هو الإبصار . . . بيد أنها كانت تعجب لهذا الشيء الذي تفقده ،
 ولا تدرك له من كُنهه ، ولا تحس إليه من حاجة . فأى شيء هذا الإبصار ؟
 وماذا يمكن أن يضيف إلى ما تنعم به من رفاهية واستمتاع ؟ إن الفتاة
 لتتقلب في أرجاء الغابة يَمِنَّة وَيَسْرَة ، وإنها لتجوب السهول وتطوى المروج

وترتاد الجمائل ، وإنها لتغترف من النبع إذا ظمئت ، وتسبح فيه ما طاب لها أن تسبح ، وإنها لتحسّ دفء الشمس في ضحوة النهار ، ورخاوة النسيم في فترة الأصيل . . . ومنذ اشتد عودها ما فتئت تقفز هنا وهناك في طرب وميراح . فهي دَرَبَةٌ بمسالك البقعة ودروبها وما فيها من لِيَّات ومعاطف ، لا يعتاقها منها شيء . . . ولطالما تحدثت إلى حاضنتها فيما اهتمت إليه من طوايا البقعة ، فكانت الحاضنة تسائل نفسها : كيف أن بصرها لم يبلغ ما عرفته هذه الصبية العمياء ؟ !

وكان شأن الزهر مع « هناء » أنها لا تكاد تلمسه أو تستنشي نفعته ، حتى تميز بينه على اختلاف الألوان والصنوف . فما كان يعزّز على الصبية أن تحس روعة الزهر وجماله ، فتكلف به ، وتقطف منه ما يروق ، فتنسقه طاقات نواضر تحلى بها صدرها ، وتزين كوخها الوديع . وقد أفضت إليها الأعشاب بأسرارها ، لطول الخبرة ، وتتابع التجربة ، فإذا الفتاة تفيد منها أكبر ما تفيد .

وما أعجب شأنها مع ساجعات الطير . . . لقد أصغت إليها شادية على الأفنان متناجية ، فحدقت لغتها ، ولقنت أنغامها ، وانتهت بها الحال إلى أنها راحت تحاكيها وتطارحها الشلو والزيم . بل ما كان أعجب شأن ذلك الطير الهيمان في صحبة « هناء » . . . إنه ليرفرف حوالها ، آنساً بها ، متودداً إليها ، يتوسم فيها الخير والأمان . وإذا هو يتهافت

عليها ، ويتواثب على كتفها ، ثم يسكن إلى صدرها الرحب الحنون .
 ولم تكن صنوف الحيوان الساربة أقل من الطير ألفة « هناء » ،
 فهي تصادقها وتحسن معاشرتها ، وتنزلها من نفسها منازل الخلان الأصفياء .
 حتى إن الضواري من الوحوش إذا أملت بتلك البقعة ، راحت ترمقُ
 الصبية من بعيد ، ولا تلبث أن تنصرف عنها ، لا تتعمدها بسوء ، كأنما
 هي عليها صَيِّدٌ حرام !

وكانت « هناء » تستقبل أيامها حافلة بالأعمال ، لا تحس لها من
 ملالة ولا ضجر . . . فهي في الكوخ دائبة تشتركُ حاضنتها في تدبير
 شئون العيش ، وهي في أكناف البقعة تارة تحتطب ، وطوراً تقتطف ،
 وحيناً هي لاهية لعب .

صفتُ رُوحُ « هناء » ، فشقت مشاعرهما عن صوفية لطيفة وصلت
 بينها وبين السماء ، فأسلمتها إلى ساعات من التأمل والمناجاة ، وخلوات
 تقضيها في صلوات وتسابيح . . . ولشدَّ ما كانت تحرص في ختام مناجياتها
 وصلواتها على أن تبتهل إلى الله ضارعة إليه أن يباعد بينها وبين ذلك الذي
 يسمَّى « الرجل » ، وأن يكفَّ عنها شره وأذاه . وكيف لا تستعيز بالله
 من ذلك الشيطان المرِيد ، وقد طالما تحدثت إليها حاضنتها أنه للمرأة
 عدوها اللدود ؟ لقد كان « الرجل » سرَّ ما عانته « هناء » من إقصاء
 وتشريد ، وما لقيته أمها من عذاب ومذلة وتهلكة . . . ما أظلم « الرجل »

للمرأة ، وإن كان لها زوجاً ، وإن كان لها أباً ! ... تلك هي حاضنتها
 نفسها لم تنجُ كذلك من إيذاء زوجها لها ، فقد سامها الخسف ، وأترع
 لها كأس الغلر ، بعد أن اعتصر منها زهرة الشباب ، وزهوة الجمال !
 لم تكن الحاضنة تدخر وسعاً ولا تدع فرصة في سبيل الزاوية بالرجل ،
 والنيل منه ، تحذر « هناء » أن تتعلق بها يوماً حباثله . . . وكانت تقول
 لها فيما تقول : إنهم يزعمون أنه لا غنية للمرأة عن الرجل ، وإني لأرجو لك
 يا بُنَيَّة أن يغنيك الله عنه كل غناء ، حتى لا تذوق طعم الشقوة والبأساء .
 وتواردت الأعوام ، تزيد « هناء » من نضرة ونماء ، وتجلو ما كمن
 في فطرتها من فطنة متوقدة ، وسريرة نقية . قرهف إحساسها بالكون
 المحيط بها ، وتوثقت صلتها بتلك الحياة التي تحياها في ظل الطبيعة
 السمحة الوداعة . وكثيراً ما كانت الفتاة تعين لها أفكار وخواطر ، تدعها
 في حيرة من أمر هذه الدنيا وما حوت من كائنات . فلا تجد مُتَدَحِّحاً
 إلا أن تطارح مربيها أشتات الأسئلة والمناقشات ، تستجلى بها ما غمض
 عنها من أسرار الحياة . ونضجت عاطفة الفتاة ، وزخر وجدانها بحيوية
 جياشة ، فلم تملك إلا أن تفيض على ما حولها من مظاهر الطبيعة وأسباب
 الحياة مشاعر الحب في أجلى معانيه .

كذلك كانت عيشة الفتاة ، حتى بلغت ميعاة الشباب .

وذات أصيل مضت « هناء » على مألوف عاداتها في مسارب الغابة

تمرح ، وبغته تصيّد سمعها نبأ طارئة ، فوفقت ترهف السمع ، فإذا
 هى يتأهى إليها همهمة ليس لها بمثلها عهد . . . همهمة من مكان بعيد !
 أهى حسيس عاصفة تهباً للهبوب ؟ إنها خبيرة بالعواصف ، لا تخطئ
 أذنّها من زمزمتها شيئاً ، وهذه الهمهمة الغريبة ليست من صوت العواصف
 فى قليل ولا كثير ! أهى زجرة العاديات من الوحوش ، تنفلى جنبات
 البقعة ، طلباً للغم والافتراس ؟ إن « هناء » لا تفوتها معرفة أصوات الوحش
 على اختلاف أنواعه ، وتلك الهمهمة التى تسمعها الآن ليست من جنس
 ما سمعته من قبل . . . والفتاة لا تخشى للعاصفة من حسيس ، ولا تهيب
 ما للضواري من زئير ، فهذا وذلك مألوفان لديها ، لا يثيران عندها قلقاً
 ولا خشية . بيد أنها الساعة تحسّ رجفة الخوف تمشى فى أوصالها من
 هذه الهمهمة التى استوحشت أذنّها لها أول وهلة . . .

ولبت الفتاة مهتاجة ، تتجمع يقظتها وإحساسها فى مسمعها وحده ،
 تريد أن تكتنه سر تلك الهمهمة التى تدنو من مكانها وتدنو . . . وألفت
 قدميها على حين بغة تدفعان بها إلى الهرب ، وإذا هى تعدو خلال الشجر ،
 كأنها ظي وتتاب شرود . وفجأة وقفت تتحسس جنبها ، فقد شعرت
 بأن شيئاً أصابه ، وقبل أن تفقه حقيقة الأمر تهاوت على الأرض فاقدة
 الوعى .

ولما أفاقت من غشيتها شيئاً ، سمعت صوتاً يهمس عن كسب منها ،

لم تدرك له مدلولاً . فتحرّكت في مرقدها ، فإذا هي تجد نفسها تتقلب على مهاد ناعم وطيء . وما عتمت أن تنسّم حولها جوّاً هداها إلى أنها تتحتّل مكاناً لا هو كُوْنُهَا المعهود ، ولا هو ناحية من نواحي الغابة التي تعرفها حق العرفان . واستكملت الفتاة يقظتها من غشيتها ، بذلك الألم الذي أخذت تحسه يعاودها ويعنف بها ، فأدلت يدها إلى جنبها تلمسه ، وتتعرف شكاته . . . فرفّ على سمعها ذلك الصوت الهامس يقول في رفق : اطمئني . . . لقد ضمدت جرحك ، فاسكني ، حتى لا يزداد بك الألم .

فاختلجت أجفانها ، وعدلت برأسها صوب الصوت تثبت من ذلك الذي يتحدث إليها هذا الحديث . لا مِرْيَةَ عندها الآن في أنه كائن جديد ، كائن غريب ، لم تعرفه البقعة فيما مضى ، ولم تصادفه الفتاة في أيامها الحالية . . . من يكون ؟ وانتظمتها رعشة هزت أوصالها ، وارتسمت على قسماتها الدهشة والاضطراب . واستغرقت الفتاة في دخيلتها تستهدى بصيرتها عوناً على ما تجد من حيرة وقلق .

وسمعت الصوت يقول :

أنا الذي جرحتك . . . سهم من سهامى أصابك !

فما كادت تسمع ذلك حتى انتهت بها الحيرة والظنون إلى يقين . . . لم يعد خافياً عليها هذا الكائن الغريب الجديد . فقالت في اندفاع :

مالى ولك تسىء إلى ؟

— حسبتك طيباً فرميتك . إني نادى إذ فعلت ، فاغفرى لى .

فهينمت تقول : حسبي منك ، وكفانى الله شرك .

فجعل يتوسمها حيران من أمرها ، يتملى فيها جمالا ساذجاً طريفاً فى عينه ، جمالا طبيعياً محضاً فى تقويمه وتعبيره . . . ورآها لا تریم وجهه ، فهى تحدف فيه أبداً تحديقاً سديداً . . . فرايته نظراتها ، فتدانى منها ، فإذا بجذقتيها ساكتتان ، فقال لها : ما بك ؟ وفيم نظراتك هذه ؟ فأجابته : لا شأن لك بنظراتى . . . إنها لا تملك ضراً ولا نفعاً . . .

إنك لترانى دون أن أراك !

فاقترب منها يرنو إليها فى تفحص واستجلاء ، وكلما أنعم فيها النظر ازداد من عجب . . . وأخيراً قال : أفصحى . . . لست أفهم ما تعنين !

— ألسـت تجدنى غير مبصرة ؟

فندت منه صيحة ، وهو يقول : يا لله ! . . . أتفقد هاتان العينان

نورهما ، وقد اكتملت لهما الروعة والفتنة والسحر ؟

فترايل عن مُحيمًا الفتاة ما كساه من تجهم وقطوب ، ولمحت عليه إشرافه عابرة وهى تقول : أعيناي كما تصف ؟

— إنهما فوق الوصف .

فانطلق الفكر بالفتاة هنيهة ، ثم قالت للرجل :

من تكون ؟ ولم حلت أرض البقعة ؟

فقال في رَيْث :

إني جَوَّابُ أَتْصِيْدُ . . . وقد انسأقت بي الرحلة إلى هذه البقعة غيرَ

قاصد . . .

— وأنا ؟ . . . أين أنا الآن ؟

— إنك على مقربة من الغابة ، يحتويك خِيبَتِي ، فقد حملتك إليه

حين نالك سهمي ، وأنت في الخباء آمنة مطمئنة . . .

وهفت إلى أن تجلس ، فخف إليها يعينها ، فنحَّت عنها يده ،

وهي تقول : إني على النهوض قادرة . . . سأَمْضِي إلى مَثْوَايَ !

— اذكرى أنك ذات مُجْرَح . . .

— لا ضَيْر . . .

واعتمدت في جلستها تريد نهوضاً ، فناولها قدحاً من عصير الفاكهة ،

وهو يقول : رُوَيْدَكَ . . . لا أَقْلُ من أن تشربي هذا القدح ، إنعاشاً

لك وتروية . . .

وكانت « هناء » يكاد حلقها يتشقق من ظمإٍ ، ولكنها أبت أن

تستجيبَ « للرجل » ، وأن تتقبل منه شرابه ، وما هي إلا أن استشعرت

ندَاوةَ القدح تلامسُ شفثتها ، وشذا الشراب يعطر أنفاسها . . .

وسمعه يقول : حلفت عليكِ أن تشربي !

وَأَسَدَتِ الْقَدَحَ بَيْنَ مَنَاهَا ، وَجَعَلَتْ تَتَرَشَّفُ ، فَقَالَ لَهَا :

كَيْفَ تَجْدِينَ مَذَاقَهُ ؟

— شَرَابٌ سَائِعٌ .

— إِذَا رَغِبْتَ فِي قَدَحٍ آخَرَ ، تَقْدِمْتُ إِلَى غِلْمَانِي وَمَوَالِيَّ أَنْ

يُعِدُّوهُ لَكَ .

— أَلَيْكَ غِلْمَانٌ وَخَدَمٌ ؟

— لِي مِنْهُمْ كَثِيرٌ . وَإِنَّهُمْ رَهْنُ مَشِيئَتِكَ فِيمَا تَحْبِبُنَ . . .

— لَزَامَ عَلِيٌّ أَنْ أَغَادِرَ خِبَاءَكَ الْآنَ . . .

— وَلِمَاذَا ؟

— لِأَلْحَقَ بِمَثْوَايَ .

— مَنْ أَنْتَ ؟

— مَاذَا يَعْنِيكَ مِنْ أَمْرِي ؟

— لَا بَدَّ أَنْ أَعْلِمَ قِصَّتَكَ .

— دَعْنِي أَخْرَجَ ، فَقَدْ أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، وَأَخْشَى أَنْ يَسَاوَرَ حَاضِنَتِي

خَوْفٌ عَلَيَّ .

— أَلَيْكَ حَاضِنَةٌ تَتَنَظَّرُ أَوْبَتَكَ ؟ . . .

— قُلْتُ لَكَ دَعْنِي أَخْرَجَ .

— وَلَكِنْ بَكَ جُرْحًا يَقْتَضِي رِعَايَةَ . . .

- سأُعنىَ بجرحى ، فاتركنى وشأنى .
- سأمر غلمانى أن يهبطوا لكَ حَقْفَةً يحملونك عليها إلى مثواك . . .
- أوثر أن أعودَ سيراً على قدى . . .
- ولكن . . .
- فصاحت تقاطعه :
- عليك أن تتركنى ، وحذار أن تقفو خطاى . حذار . . .
- فسكت عنها لحظة ثم ربتَ كتفها فى تَلَطُّف ، وهو يقول :
- ما شئت فافعلى .
- فنهضت عن مرقدها ، وشرعت تنقل خطاها ، فاستوقفها يقول :
- ألا يروقك أن نلتقى ثانية ؟
- كلا . . .
- ولم ؟
- كلا ، وكفى . . .
- ومضت بهدى البصيرة تلتمس الباب ، فقال لها مهتاج الخاطر :
- الطريق شائك . . . وأخشى أن تضللى مثواك .
- فابتسمت مستخفة بقوله ، وردت عليه تقول :
- أرح نفسك من أمرى .
- وغادرت الحباء تطويها ظلمة العشيّة ، وهو يتبعها نظره فى حيرة وعجب .

سارت « هناء » تقطع الدروب ، وتجاوز خلال الشجر ، تعلو بها رُبوة ، وتهبط بها وهدة ، ومن فوقها تتناغى الطيور في أعشاشها ، كأنها تؤنسها في وحشة الليل ، وتعينها على وعشاء الطريق .

بيد أن « هناء » كانت في شغل عن تغريد الطيور ، لا بما أصاب جنبها من جرح ، ولا بما يعتادها من ألم ، ولكن بما صادفت اليوم من هذا الحادث العظيم ، حادث لقائها لذلك الكائن الحديد الغريب ، ذلك الذى جمع القدرَ بينها وبينه ، على غير موعد ، وعلى غير حسابان . ذلك الذى تحدث إليها وتحدثت إليه ، فأضاف صوته جديداً إلى ما سمعت من أصوات . ذلك الذى أصابها برمية من قوسه ، دون أن تجنى ذنباً أو تُسلف إساءة .

أليس هو « الرجل » ؟ . . . خصيم المرأة الشغوب ، والحريص على إذلالها والتنكيل بها كل الحرص ؟ أليس هو الذى أفاضت الحاضنة لها في التحذير منه ، والاستراية به ، وكانت تسأل الله لها أن يُغنيها عنه ، ما بقى فيها رَمَق ؟

ولكن ما بال هذا الرجل لم يكن فى لقائه إياها أخا غلظة وقسوة ؟ . . . لئن كان قد أساء إليها لقد كان فى ذلك غير عامد ، وما تنكر هى أنه بالغ فى التلطف بها ما وسَّعته أن يبالغ ، وبذل لها من العون والرعاية ما خفَّف عنها ألم الجرح . . . أترى الحاضنة أسرفت فيما رمت به صِنْفَ

الرجال من مآثم وأسواء ؟ أم ترى الرجل يطوى نفسه على خلة من الخديعة
والخاتلة والدّهان ، فهو يرق ويتلطف لكى يتمكن ويتملك ، وهو
كالشعبان يلكين ليلدغ ؟

وظلت الفتاة فى لجة من أفكارها ، حتى قاربت باب الكوخ . . .
فإذا حاضمتها تبتدرها مسألة إياها : ماذا أبطأ بها ؟

فلم تجب « هناء » . . . وعجّلت إلى فراشها ، فألقت بنفسها فيه ،
وقد مسّها إعياء . وما أسرع أن جاءت إليها الحاضنة تسألها :
ما بك ؟ هكلا أخبرتنى !

فطفقت الفتاة تقص عليها مغامرة اليوم ، وعلى محيّاها سكينه وهدوء ،
وفى حديثها وداعة وأناة ، كأنما هى تقصّ رؤيا جازت بها فى عالم المنام . . .
وأرهفت الحاضنة سمعها لحديث الفتاة ، لا تقطعه عليها بكلمة ، حتى
إذا تمت القصة ، نهضت الحاضنة تقول فى صوت متهدج : علينا أن
نبارح البقعة . . . علينا أن نُخليها لمن حل بها اليوم . . . لا مقام لنا
حيث الرجل مُقيم . . . إنه لا أمان لنا من شره وأذاه . . . فلنرحل يا بنية ! . . .
فلنرحل فى الغداة !

فقالت « هناء » وصوتها مهزول : أنهجر وطننا لذلك الغريب ؟
عليه هو أن يرتحل عنه ، وأن يدعه لنا من دونه !
— وإذا أبى أن يرتحل ؟

— سأعرف كيف أريده على الرحيل . . .

ورنق في عينيها النعاس ، وقد استبدَّ بها الجهد . وما هي إلا أن أخذت الحمى ترعى جسدها ، فباتها ليلة عسراء ينبو بها المضجع ، ولسانها يهذى بأصغاث أقوال . وُخيِّلَ إليها أنها تتقلب على فراش من حَسَك ، وأنها ما برحت خبياء ذلك الصائد الجواب ، تتابها سهامه سهماً تلو سهم ، فتحسّ لوخزها ألماً بعد ألم . . . ثم لا تلبث أن تجد ذلك الصائد مقبلاً عليها حانياً عطوفاً يأسو جراحها الدامية .

وتواصلت أيام عانت فيها « هناء » وقدة الحمى ، وهي ذاهلة لاتعرف من أمر نفسها شيئاً . . .

وفي صبح يوم فطرت حرارتها ، فاستردّت وعيها ، واستطاعت أن تستوى على سريرها ، قائلة لحاضنتها مهممة :

ما أقساها ليلة مرت علىّ ! شدّ ما اختلطت فيها أحلامي . . .

فالت عليها الحاضنة في بشاشة وابتهاج ، تقول : حمداً لله على

سلامتك . . . لم تكن ليلة واحدة ، وإنما هي ليال ثلاث . . .

— أمضت علىّ ثلاث ليال وأنا نائمة ؟

— لا عليك يا بُنية ، فقد مرّ ما مرّ ، وانزاح الشر . . . ألا تجدين

عندك شهوة لطعام ؟

— لا بأس بقليل من شراب . . .

وأسعفتها المربية بما طلبت ، فأخذت « هناء » تترشف ، وهى تقول :

لقد سقانى عصير فاكهة طيب المذاق . . .

وأمسكت عن الكلام هنيئة ، ثم استأنفت تقول ، وهى تواجه حاضنتها

بابتسامة : ولكنى أؤثر عليه هذا الشراب . . . إنه من صنع يدك !

فقالت المربية تحشها : اشربى يا بنية اشربى !

— أما العصير الذى سقانى إياه ، فهو من صنع غلمانة ومواليه .

— أنت إلى الراحة أحوج ، فلا تسرقى على نفسك بالكلام .

— لقد أصبت من الراحة ما فيه مقنع . . . ألم تقولى لى قضيت

نائمة ثلاث ليال ؟ لقد أضجرتنى هذه الراحة ، وأحس الميل إلى الحركة

والحديث !

فلاطفتها المربية تقول فى تحنن : وماذا عندك من قول ؟

— أفكار شتى يزحم بعضها بعضاً ، فما أدرى من أين أبدأ الحديث .

يا له من حلم عجيب !

— أى حلم يا « هناء » ؟

— تلك الرؤيا التى طالعنى فى منامى . . . كان يرمنى بالسهم

تبعاً ، ثم لا يفتأ بأسو جراحى ويواسينى !

وأخذت الفتاة بيد الحاضنة تضعها ، وهى تقول :

لقد طلبت إليه ألا يقفوَ خطاى . . . فهل فعل ؟ . . . اصدقينى !

فزاغت نظرات المربية وهى تعالج أن تجعل لها مخرجاً من الإفصاح ..
ولكن « هناء » حاصرتها تقول :

لقد نهيته وحذرتك ، وأخشى أن يكون خالفنى .

فطأطأت الحاضنة رأسها وقالت : وما نفع النهى والتحذير مع هذا
الصنف من خلق الله ؟ سنرحل يا بنية . . . سنرحل لا مناص !
— أجا هنا ؟

فلم تُحر المربية من جواب ، فاستأنفت ربيبتها تقول : ماذا فعل ؟

— لا شئ . . . قلت لك لا مقيم لنا هنا بعد اليوم !

— لا يخرجنا من أرضنا أحد . . . أندع هذا الرجل يطردنا من
جنتنا ؟

— لقد سبقه إلى مثل ذلك « إبليس » . . . بسببه فارقت الجنة
« حواء » !

— ذاك صنيع « إبليس » ، فأما نحن فبإزاء رجل مثلنا إنسان .

— الرجل أدهى من « إبليس » دهاء وأشدّ خبثاً ومكرّاً . . . ولا

تدبير لنا معه إلا أن نُخلى له وجه المكان ، لا أقل من أن نتوارى عن
عينيه إلى حين . . . أوجيسُ من هذا الرجل شرّاً ، وقلبي دليلي .

فصمتت « هناء » فترة ، ثم قالت فى استسلام :

إنى معك على أية حال ، فافعل ما تريدن !

وفي الضحوة من غد كانت « هناء » قد تماثلت ، فخرجت تجلس أمام الكوخ لتستروح ، وتهافت عليها أسراب من الطير تناجيها بأنغامها كأنها تترّف إلى سمعها فرحة السلامة والشفاء ! . . . وبينما الفتاة في مجلسها الأغنّ الأنيس ، إذ أحست بالطير يدركه ذعر ، فيتفرق عنها ضارباً في الأفق . فألفت « هناء » نفسها تنهض قائلة على الفور : أنت ؟

— نعم ، أنا . . .

— أما قلت لك لا تَقْصُفُ خطاي ؟

— إنما بغيث أن أطمئن إلى سلامتك .

— بل إنه الفضول يبعثك على أن تعبث براحتي .

— استوحيتُ ضميري فيما فعلته ، وما حسبته واجباً أديته . . .

لن أضايقك بزيارتي ! . . . أردت أن أنتظر حتى أراكِ بارئة ، وإلى مزعم الرحيل عن البقعة بعد قليل .

— لك شكرى .

— فرغتُ من مهمة الصيد ، ولم يبق لي في المقام من أرب . . .

وهأنذا جئتُكِ مودعاً . . .

— صحبتُكِ السلامة في ترحالك . . .

— أستاذك في سؤال .

— سل ما بدا لك أن تسأل .

- أما زلتِ حانقةً على ؟
- من أخبركِ بأنى عليكِ حانقة ؟
- فيمِ نُفَرَّتُكِ منى ؟ أتخشين أن أُلحق بكِ مضرة ؟
- كأنكِ ترجو أن أخشاك !
- إني أُلح فيكِ إنسانة ليست من جنس الناس . . .
- ماذا يشغلك من أمرى ؟
- أليس فى إيثارك الحياة فى هذه البقعة ، وعزُّلتكِ عن مزدحمِ الناس ، مثارٌ للدهشة والعجب ؟
- فلاأكن عندكِ ضرباً من حيوان البقعة ، يَزُلُّ عجبكِ ودهشتكِ .
- ألم تحسبني ظلياً فرميتنى بسهمكِ ؟
- لم يقع فى خلدى أن آدمياً يسكن هذه الغابة القاصية ، فكنت وأنت تتواثبين بين الشجر أشبه ما تكونين بظلى ناشطٍ كفور .
- ولكنكِ ألفتِ إنسانة مكان الظبى ، ولعلها أشدّ منه شروداً ونفرة . . . ما أسوأه بدلاً !
- بل نعم البديل . . . ألفتِ إنسانة تتفرد بما لها من صفات : شباب وفتنة وذكاء ، ولكنها صفات تضع فى هذه الأرجاء ضيعة الصوت فى الفضاء ! . . . حقاً إنه لأمر يهيج الغيظ ويثير الحنق !
- فابتسمت « هناء » وقد توردت وجنتها ، وهى تقول :

علام الغيظ والحقق ؟

— لؤلؤة نادرة يخفيها قاع البحر ، لو قُدر لها أن تبرز للشمس ،
لبهرت بآلائها أنظار الخلق . . . ألا يحق المرء ويتغيظ حين يعلم أن
هذه اللؤلؤة باقية في مستقرها ، سحينة البحر ، رهينة القاع ؟
— وما انتفاع لؤلؤتك بأشعة الشمس وأنظار الخلق ؟

فقال في تحمس واحتياج : لها منافع أى منافع . . . حسنها الشعور
بما لها من جلالة وخطر . . . حسنها الاعتزاز بما تتبوأ من تيجان ، وما تزين
من صدور . . . لتكونن هذه اللؤلؤة أبهى جلاء وأجمل صقلا حين تنطلق
من محبسها الغائر في غيابة الأصداف ، متألفة في أفقها الحديد !
— وعسى أن تكون لؤلؤتك لا تعلم من أمر نفسها ما يعلم مثلك ،
فهي قانعة هائلة بحياتها التي تحياها في سداجة ودعة واطمئنان !

— كأنك ترين أن هناة المرء في أن يجهل قيمة نفسه !
فترى قبل أن تجيب بقولها في سهوم : وما ضر المرء أن يجهل ؟
— هذه السعادة فيما تصورين ليست إلا وهماً كاذباً ، فما السعادة
الحقة إلا أن يستبطن المرء خصائص نفسه فيجلوها على المال ، لتأخذ
حظها من كسب الحياة ومجد التقدير .

فقالت « هناة » وهي تزداد سهوماً :
أوضح ، فما زلت بحاجة إلى إيضاح . . .

— مواهب المرء خلقت معه ، لكي تعينه على أن يسعد ، ولكي يستطيع أن يظلل بسعاده جموع البشر . . . هنا تبطل الأثرّة والأناية ، ويحل محلها التعاون والتآزر والإخاء . . . إنما خلّق الناس ليسعد بعضهم بعضاً !

فهينمت الفتاة تقول :

من كانت عنده مواهب لإسعاد الناس ، فليكن بها سخيّاً .

— وهل تظنين أنك قد أفقرت من مواهب الإسعاد ؟

— ماذا ترى في من مواهب ؟

فصاح يقول : فتنة الحسن ، وروعة الجمال !

— إنك ترى ما لا أرى !

— أنت تجهلين ما وهبك الله من منحة غالية . . . عبقرية الجمال . . .

تلك القبسة الإلهية التي تكمن فيها حرارة الحياة وخفقة الوجود . . . لولا

الجمال الذي يربط الكائنات بروابط الحب ، لعم الكون تنافر أو دى به ،

فلم يبق منه باقية !

— ربما كان الجمال غمّاً ، ولكنه غم لمن يبصره . . .

— بل إن الجمال غم كذلك لمن يستشعره . . . أتجهدين شعورك

بروعة ما يُحدّق بك من مجالى الجمال ؟

— لا جمود .

— أتذكرين إحساسك أنك وافية الحظ من الجمال ، وأنت فاتنة
فتنة الطبيعة في زُخرفُ الربيع ؟ ...

فأطرقت الفتاة ، وازداد توهج وجنتيها ، وقالت في صوت المهتاج
الحَيِّى : دَعْنَا من هذا ...

— لا أدعك ... بل أريدك على أن تصارحينى : أتُحسِن ما لك
من فتنة وجمال ، أم لا تحسِن ؟
— لست أدرى .

— أنت صادقة فيما تقولين ، فإنك لا تدرين الكثير من حقائق
الحياة حواليك ، وذلك مَرَدُّه إلى تلك الخلوة والوحدة التى باعدتُ بينك
وبين دنيا الناس .

— إني راضية بخلوتي ووحدي ، وما أبغى بعيشى بدلاً ...
— كشأن اللؤلؤة القانعة بحياتها فى دخيلة الأصداف ! ...
— لؤلؤتك هذه لا تملك لنفسها صَرفاً ولا عدلاً ، فهى مشدودة
إلى باطن صدقتها بأعراق محكمة الوثاق .

— ما أحوج اللؤلؤة إلى من ينتزعها من أعماق الأصداف ، لتطالع
أفق الهواء والضياء !

فترحزحت « هناء » فى وقفها شيئاً محجمة ، وهى تقول :
لا ... لا ينتزعها أحد ! ... لا يخرجها من نطاقها شئ !

وتابعت تراجعها ، وهى تقول فى صوت مخفوض :

اتركنى . . . وداعاً !

فهمهم يقول : بل إلى ملتقى وشيك !

وأدبرت « هناء » تقصد باب الكوخ ، ومضت تَوّاً إلى مرقدِها تستقبلها فيه غاشية المحموم ، ولكن الغاشية لم تكن بالحمى التى تسلم الفتاة إلى غيبوبة وهذيان ، بل هى حمى اليقظة والتوفز والقلق . . . ولبشت الفتاة على سريرها ممدودة ، وكأن هاتفاً يحث على مقربة منها ، يعيد على سمعها حديث الصائد ، لا يمل التكرار .

وما إن رجعت إلى الكوخ حاضنة « هناء » حتى أقبلت على ربيبتها تبين أمرها ، فأفضت إليها الفتاة بكل ما جرى ، فصاحت الحاضنة :
أيجرؤ أن يتحدث إليك فى هذا ؟ أقادر هو على أن ينتزعك قسراً من موطنك الأمين ؟

— لم يكن فى قوله أمر وقسر ، وما أحسبه يطوى نفسه على شر . . .

— بل أقسم على أنه ينوى الشر كل الشر .

— لقد كان يتحدث إلى هادئ الصوت ، كأن حديثه وسوسة

الطير . . .

— إنه « إبليس » ، يبدو فى إهاب قدّيس . . . لهو أفعوان خدّاع ،

باطنه سم ناقع ، وإن كان فى ظاهره مكميس الريحان ! . . . احذريه

يا بُنية ، فأنت غريرة لا خبرة لك ولا تجربة . . . هلمسى نرحل !

فقالت الفتاة ، وقد ضاقت بحديث حاضنتها : كما تبغين . . .

وأمضت الفتاة يومين لا تبرح عتبة الكوخ ، يتنازعها وحشة وانقباض ووجوم ، وفي صدرها نزعات مضطربة تعاني من كبتها ما تعانيه . . . ولطالما جوم في خاطرها حديث الصائد عن تلك اللؤلؤة التي تخفى تألقها في ظلمة الأصداف ، فيتمثل للفتاة طيف اللؤلؤة رائعاً فاتناً لو برز إلى عالم الهواء والضياء لتنافست في اجتلائه الأنظار . . . وينساق التفكير بالفتاة هنا وهناك ، وتزداد بها الحيرة والاضطراب .

وكانت الحاضنة كلما ضربت موعداً لساعة الرحيل ، راحت الفتاة تعتل على الحاضنة بكل ما يسعها أن تعتل به ، تأجيلاً للرحلة ، وتعويقاً للإزماع . ولم تجد المربية محيصاً من أن تُقبل على فتاتها تثير في نفسها الخوف من الرجل ، فتصوره لها في أبشع الصور ، وتصف من أمره ما يبعث على الهرب من وجهه . فإذا الفتاة تجيب مرييتها بقولها :

إن هذا الرجل لأعجز من أن يمسنا بسوء !

فدنت المربية من ربييتها مهتاجة تقول : بل إنه لقوى الشكيمة ، وافر الأعوان ، واسع السلطان . . . ليس هو بالصائد الجواب كما يزعم ، فلقد تحسست خبره ، فتناهى إلى من أمره الكثير . . . أعترف لك يا بُنية بأنى أخشاه !

— أما أنا فلا أحس منه خشية !

وقضت « هناء » ليلة ثقلت عليها وطأتها ، فما إن أحست طلائع
الفجر حتى ضاقت بمرقدها ذرعاً ، ولم تملك فيه مقاماً ، ففعلت
تخرج أمام الكوخ تستقبل صباحها الجديد ، وتستنشى نسيمه الرطيب .
وأخذت على الفور ترجل شعرها السبط الموج ، وتغنى بالتطبيب
والترزين بالأزاهير . . . وأحست بقدميها تمشيان الهوينى ، فتركت لهما
الحرية والانطلاق . وألفت نفسها تخترم المسالك والدروب ، فتهبط
الوهاد ، وتعتلى الرّبيّ ، حتى ألفت بها خطواتها فى دَغلٍ مشتبك ،
فصكّ سمعها صوت من بعيد يقول : حسبك انطلاقاً . . . كاد سهمى
يصيبك كما أصابك من قبل !

فتراجعت شيئاً ، وكان وراءها جذع شجرة ، فأسندت إليه كتفها ،
وقد انسدت على منكبيها خصلات شعرها المسترسل ، وصدرها يعلو
ويهبط ، وما هى إلا أن وافاها الرجل مائلاً قُبالتها يَتملاها على ضوء
الشمس الوادع ، وهو يتسرب إليها من بين مشتبك الغصون والأفنان . . .
وسمعه يقول : أما حدثتك أننا ملتقيان فى قريب ؟

— هى الأقدار صانعة الغرائب والأعاجيب !

— إذا هفت الروح إلى شىء كان لها سلطان القَدَر الغلاب ! . . .

ورُوحى إلى لقياك يهفو بها شغف وحنين .

- وماذا تبغى من لقائى ؟
- إحساس كمين يصلنى بك ، لا أملك له دفعاً . . .
- وإلى أية غاية تسعى ؟
- أن أسعد روحى وروحك معاً . . .
- أما زلت تحسب أنى بحاجة إلى مزيد من الإسعاد ؟
- إنى من ذلك على يقين . . . كفى ما مضى من أيامك التى
بعثرتها بين حصباء هذا المنفى ، والدنيا الواسعة وراء ذلك زاخرة المباهج
زاهية الألوان . . . وإنها لتستقبلك بأجمل الترحاب !
- فصمت الفتاة لحظة ، وفكرها يتتبع . ثم قالت حازمة اللهجة :
أوضح ما أنت قاصد . . .
- فقال وقد دنا منها يأخذ بيدها فى تودد : أن تكونى معى ، تعمسين
قصرى ، ومن حولك أعوانى وخدعى يأتمرون بأمرى . . . ألا ترَضين أن
تكونى شريكة حياتى ؟
- فاختلج صوتها يقول : شريكة حياتك ؟
- زوجة الأمير . . . لا يألوها الأمير إسعاداً !
- فقالت مهزولة الصوت فى تردد : لا . . . لا . . .
- ولم لا ؟
- فتابعت قولها : لقد آمنتُ بأن المرأة لا خير لها فى صحبة الرجل . . .

- باطل من القول وزور .
- ملء حياتي دلائل على صدق ما آمنت به .
- عندي نبأ مما يشغل رأسك من وساوس وأوهام . . . لقد عرفت من حاضنتك ، في أثناء وعكتك ، خبيثة أمرك . . . لقد بعثني الله إليك لأصلح من شأنك ما أفسدته الأيام . . . ليس الرجال سواء ! . . . تقي بما أقول ، وعول على كل التعويل !
- حبذا وثوق الإنسان بأخيه الإنسان . . . ولكن !
- ماذا ؟ أفضي إلى بما عندك .
- وازداد منها دنواً ، وهو يلاطفها ويحوطها بذراعه ، فلم تنكر عليه ، بل لقد أحست بالطمأنينة في كنفه ، واستأنف الأمير قوله : أفيض وصارحيني — إني خائفة .
- مم خوفك ؟
- . . . لست أدري !
- أترك تخافين من نفسك ؟
- . . . لست أدري !
- إن هي إلا أوهام فتاة هيئوب تُعوزها المرأة التي تواجه بها ما ليس بمألوف . . . لقد تعودت حياة السذاجة الساكنة الصامتة في رحاب هذه البقعة ، فأنت تخشين ما عداها . . . أنت أحوج ما تكونين إلى روح

المغامرة ، حتى يكون بك إقدام على اقتحام المجهول . . . أنت أخرج ما تكونين إلى يد تدفع بك إلى لجة الحياة ، تخوضين غمارها ، وتتعرفين أعماقها . . . لأكون ذلك الذى يَبْشُكُ تلك الروح . . . لأكون هذه اليد الدافعة بك فى ملتطم الموج .

— تريد أن تُلقى بى إلى ضيعة وتَهْلِكْ . . .

— إنى معك ، رائدك وهاديك ، لا أتخلى عنك ، ولن يصيبك شر

ما دمت فى صحبتي !

وأظلت الفتاة وصاحبها فترة صمت ، على حين كان فكر الفتاة قد دارت به دَوَّامة من شتى الخواطر والتصورات ، والأمير فى وقفته مسحور يتوسم ذلك المثال الرائع من جمال فطريّ يشف عن روح صنيّ " نقيّ " ، لم تقع عينه على نظيرهما فيما وقعت عليه من غيد حسان .

وانشق حجاب الصمت عن صوت الفتاة تقول : أما حجبك عن رغبتك فى مصاحبتى حاجز ؟ ألسنت رأيتنى فاقدة البصر ؟

فضغط الأمير يدها يحيمها فى توكيد : لن تلبثى كما أنت لا تبصرين .

آن لعينيك أن تنعما بالنور يا « هناء » !

فذهلت الفتاة وهممت : لست أفهم مما تقول شيئاً . . .

— ستبصرين . . . قلت لك إنك ستبصرين .

— أهأزئ بى أنت ؟

— أقسمتُ لا سخرية ولا هزؤ... لتبصرنَّ يا «هنا»... كثرينَّ
الدنيا كما نراها ، وإذن يتاح لك أن تحيىَّ معى حياة الرخاء والنعمة !
— لقد وُلدتُ كما أنا مكفوفة البصر ، وقضيتُ أيامى كما ترانى ،
فـأنتى لك أن تردى عنى ما قضى به الله ؟

فقال لها الأمير فى رزانة واطمئنان : لقد تيسر لى أن أعودك وأنت
على فراشك فى غيبوبة الحمى ، وكان معى طبيبى العظيم ، أمهر أطباء
عصره ، فما زال معك يفحص ويتعرف ، حتى زفَّ إلىَّ هذه البشرى
السعيدة ، بشرى إمكانه أن يجلو عن عينيك هذه الغشاوة التى تحجب
عنك مجالى الحياة .

فأحست الفتاة أن انتفاضة تعروها ، وما لبثت أن ران عليها وجوم .
فأخذ الأمير يلاطف يديها وهو يقول :

هكذا الله فى عون المظلوم... وهكذا الصبر آخرته خير !
واجتذب يدها يدعوها أن تخطو معه ، فانقادت له ، وجعلها
يتهاديان خلال الشجر ، تهبّ عليهما أنسام رقاق ، وتداعب وجهيهما
أهداب الغصون . وأقبل الأمير على سمع الفتاة يربطه بأحاديث عذبة ،
على حين كانت الفتاة منطوية على نفسها ، يعلوها سهوم... بسط
الامير لفتاته كيف هو راحل بها إلى دار إمارته ، فتمعدها إياها ، غير
مدّخر وسعاً فى تكريمها وتنعيمها ، ومتى اطمأن بها المقام فى كنفه ،

تولاها الطبيب بالأشفية والعلاجات ، فإذا هي عما قليل ذات بصر ...
ولما بلغ الأمير من حديثه كل مبلغ ، عقبت الفتاة عليه بقولها :
فيم حرصك وإصرارك على أن أبصر ؟

— لأني أبغى لك السعادة مكتملة ...

— أحسبت أن الإبصار عنصر من عناصر اكتمال السعادة للإنسان ؟

— الإبصار سبيل إلى معرفة جديدة ، ووسيلة إلى لذة واستمتاع ...

أداة تكشف وجهاً من حقائق الوجود !

— ليست العبرة بالأداة ، وإنما العبرة بما يتوافر لصاحب الأداة

من قوة التمييز ، لاستكناه الحقائق ، واكتساب المعرفة ، وحسن الاستمتاع .

أترى كل مبصر يفيد من إبصاره شيئاً ، ويضيف إلى معرفته طرفاً ؟

— وهل الأمر إلا كذلك ؟

— ولم لا تكون تلك الأداة مدّرجة إلى خداع وتضليل ، يسوء بها

فهم الحقائق ، وتنعكس بها صور الأشياء ؟

— عجمتُ لما تقولين !

— إن المرء لا يعرف كنه أمر ، ولا يدرك دقائق صورة ، إلا إذا

استملى وليجة نفسه ، ودخيلة مشاعره . أليست البصيرة أولى الأدوات

بأن تستكنه الحقائق ، وتستجلي الصور ؟

فوقف الأمير يستمع مشدوهاً ، ثم همهم : لا أجد ما تقولين ،

ولكن الإبصار عظيم الحدوى بلا جدال . . . إنه ليُكسب الإنسان اطلاعاً على الظواهر التي تحيط به في حياته ، وكل اطلاع هو رشفة يتذوق بها الإنسان لوناً من المتعة والإسعاد . . . كلما ازدادت بجوانب الحياة معرفة ، ازدادت بها من سعادة واستمتاع . . . أصغى إلى . . . لقد كنت بعزلك سعيدة في دنياك الضيقة ، ولكن ألم تصبحي أكثر إسعاداً وأوفى استمتاعاً منذ التقيت بي ، أعني منذ أضفت إلى حياتك لوناً طارئاً من الحياة ، عنصراً جديداً لم تكن لك به معرفة من قبل ؟ أجيبيني : أأست اليوم أسعد منك بالأمس ؟

— أمعرفتي بك زادتني سعادة ؟

— سؤالٌ عندك جوابُهُ .

فصمتت هنيئة ، فتابع الأمير قوله مشبوب النفس : أما أنا فلا أنكر أن معرفتي بك أهدت إلى رحيقاً من السعادة والنعيم . صارحيني لا تكأمني . . . لقد سرتك ملاقاتي بلا ريب !

فأدارت وجهها شيئاً ، وهي تقول : ربما . . .

— ولو أبصرتيني لازددت معرفة ، أعني لازددت بي مسرة وسعادة .

— أخشى على نفسي من أن أبصرك !

— أظننتني دميم الطلعة ، يَشع الصورة ؟

— لا شأن لي بدمامة ولا بشاعة . . . قُصارى ما أخشى أن أجدك

على غير ما أنتَ في خيالي ، وفيما صورك إحساسي .

— بربك حدثيني : أية صورة تتمثليني عليها ؟

فأمسكت عن الكلام لحظات ، وعلى طلعتها أمانة الاستغراق في التفكير ، ثم قالت في لهجة الحالم الهيمان : إني لأتمثلك في صور مختلفات . لكأنك أحياناً ترسل إلى سمعي لحناً جديداً على ، فيه الجلبة والعنف ، يمازجان الهيئتين والرفق ، وإنه ليثير في نفسي غرائب إحساس . . . ولكأنك آونة أدنى إلى خطرة النسيم في الصباح الرطب ، يحمل في أعطافه أنفاس الأعشاب ذكية العطر ، فإذا هو يصفاح وجهي يبعث فيّ اليقظة من سباتٍ مديد . . . ولكأنك تارة بعد تارة أشبه ما تكون بفكرة جياشة مستبهمة ، تطوح بي في حيرة واضطراب !

فصاح بها وهو يحتويها على صدره :

حسبك ، حسبك . . . إنه الحب ، وهذه شواهدة !

فهينمت تقول ، وقد تراخت بين يديه :

الحب ؟ . . . لا أدري . . . وحقك لا أدري !

وترافقا ، تاركين الخائل إلى رحبة معشبة تموج فيها أشعة الشمس ،

فقال « هناء » : عروس النهار في ساعة جلوتها !

فهمهم الأمير وهو يتلفت حوله : يا للضوء الساطع !

— الضوء الساطع . . . النور . . . ألا تستطيع أن تصف لي ما النور ؟

- النور ؟
- أخبرنى به ، اجعلنى أقترِب منه ، زدنى به معرفة ، أنلنى سعادته !
- النور ؟ ... النور ؟ ... إنه يقظة عظيمة ، بهجة قوية ،
- أمل عريض ، عزم واقتدار ...
- أَيْكون الظلام إذن مِزاجاً من الكآبة والحمول ، ومن الخور واليأس ؟ !
- فى الظلام من ذلك كله ظلال ...
- أى ظلام ؟ إني لا أجد فى دنيائى التى أعيش فيها شيئاً مما تصف ...
- إن الظلام معنى مُوحِش ، لا يدركه إلا المبصرون ! ... ففى
- عرفتِ النور أدركتِ ما يعانيه غير المبصرين من معنى الظلام !
- إذن لا سبيل إلى أن أعرف حقيقة الظلمة التى تحدثنى عنها إلا أن أكون مثلك مبصرة ...
- وستبصرين ، فتعرفين ...
- الإبصار ... يا لله ! ... أحس أنى أخشاه .
- ما خشيتك من أن تبصرى ؟
- أحس أنى به أتبدل خالقاً آخر ... خلقاً لا صلة له بما فى
- مظاهر عيشى وعناصر كيانى ... أتريدنى أن أفقد نفسى ؟ !

فتضحك وهو يداعب بأنامله شعرها المواج ، ويقول :
وماذا فى أن تفقدى نفسك ، وأن تتبدلى منها نفساً أخرى أعرف
بمتعة الحياة ، وأحظى بسعادة العيش ، وأقدر على استجلاء ظواهر
الوجود . . . ما ضرك لو فارقت « هناء » البرارى والأدغال ، وغدوت
« هناء » الحواضر والقصور ؟ أتزهدين فى رفاة ورغد ؟ أترغبين عن
جاه وسلطان ؟ !

وانسأقت بهما الخطا ، والأمير يتحدث إلى فتاته حديثاً مستفيضاً
يصف به ما يعده لها الغد من مختلف المباحج والمتع فى عيشهما الجديد .
ولما أبلغ الأمير فتاته مشارف الكوخ ، أقبل عليها بطبع على جبينها قبلة
مستبشرة ، وقد تواعدا على أن يكون بينهما فى الغداة لقاء .

ومضت « هناء » إلى الكوخ تطرق بابه ، وهى فى نشوة من الأحلام ،
وملتطم من الخواطر . . . وسارعت إليها مربيتها تقول : ما خطبك يا بنية ؟
— أمر عجب حدثنى به الأمير .

— أىُّ هراء حدثك به ؟

— كان جاداً فى توكيده لى أنى سأبصر . . .

فصربت المربية صدرها مدهوشة تقول : تبصرين ؟ كيف ؟
وظفقت الفتاة تعيد على مسمع حاضنتها ما أفضى به إليها الأمير ،
فقالت المربية لربيتها : حبذا إبصارك يا بنية . . . إنه حلم جميل ، ولكن

علينا أن نكون على حذر !

— مم نحذر ؟

— ليس من الكياسة الإغراق فى التأمل ... ربما خاب فآل

الأمير !

فقال « هناء » واجهة : ربما ...

— كلنا يا بُنَيَّة سواء أمام العواقب المحزنة ، فلا أنا أو أنت ولا الأمير

أو طبيبه بمستطيعين أن نستيقن علم شىء طواه غيبُ الله ... وليت شعرى ماذا عسى أن يكون إذا أخفق الطبيب فى مهمته ؟

— ماذا عسى أن يكون ؟ أظنّ كما أنا ، لم أخسر شيئاً ...

— حقاً ، لا تخسرين شيئاً ، فإن إبه ارى لم يضاف إلىّ جديداً

أنت مفترقة إليه ، ولكن هل يرضى الأمير بك شريكة لحياته إذا لم تستكملى إِبْصارك المنشود ؟ الأمير يريدك له وأنت ذات بصر .

— فإن لم أبصر ؟

— أخشى أن يجافيك يا بنية ، أخشى أن يصيبك منه ما أصاب

أمك على يد أبيك من قبل ... لا تحسبى أئى أسىء الظن بالأحداث ،

أو أئى أتوهم ما ليس بواقع ، فالرجل لا يعزّ عليه أن يقارف ما طاب له

من الآثام ... إنه لا يهتَب الكبائر ، ولا يعفّ عن الصغائر !

فقال « هناء » فى صوت يخفّضه الحياء : ولكنه يحبنى يا أماء ...

— ربما كان لك الآن حبيباً ، ولكنه محبّ إلى حين ، وكل حب إلى ملال .

— أَيْمَلُ المرء من يحبه ؟

— النساء يا بنية حبهن خالد ، فأما الرجال فإن قلوبهم تتلون ، وإنهم لا مقام لهم على ولاء ولا وفاء . . . تلك طباعهم ، هيات أن يدوم لهم عهد ، وهيات أن يظل حبههم مقصوراً على امرأة واحدة !
— أكل الرجال سواسية ؟ أليس في الرجال وفي صادق الود ، حافظ العهد ؟

— الرجال جميعاً من طينة واحدة ، ذلك ما لتقنني إياه غيري ، وذلك ما خبرته بنفسى . . . فخلى عنك يا « هناء » سراب الأوهام .
— هذا تشاؤمك بالرجال منذ عرفتك يا أماء !
— وإني لأوصيك أن تتشامى مثلى ، فما في التفاؤل بالرجال إلا شرٌّ ووبال .

— لا أتشام ولا أتفاعل . . . ولا أجدُ لهذا ولا لذلك من داعية . . .
— بل إني أجد ريح التفاؤل بالأمير يعمّر قلبك ، ولست أخشى عليك شيئاً كما أخشى أن تزكو في قلبك للرجل نزعة حبّ !
فانتفضت « هناء » وتعجلت تقول : ليس في قلبي عاطفة له . . .
— احذري أن يتسرب إلى قلبك حب هذا الأمير . . .

— إني لا أحبه .

— هذا حسن .

— ولكنى لا أكرهه !

— هنا يبدأ الخطر . . .

فصاحت « هناء » : أى خطر يا أماه ؟

— إنه الخطر الفادح ، فاحذريه . . . لقد أبلغتكم نصيحى ، وعليك

نفسك !

— حسبك . . . حسبك .

وما لبثت « هناء » أن استشعرت ساكب الدمع يتفجر من عينيها ،
وقد زلزل الشهيق كيائها كله ، فدنت منها المربية تسندها إلى صدرها ،
وتسرى عنها قائلة : لا يسؤك حديثى يا بنية . . . إني بك مشفقة ، ولست
أعدل بإسعادك فى الدنيا شيئاً وإن عَزَّ . . . لو أنى لمحت بارقة خير فيما
يعرض عليك الأمير لكنت لك عوناً أىّ عون ، ولكن لى من السن والتجربة
ما يجعلنى أفطنُ إلى سوء ما تتعرضين له ، وذلك سر تحذيرى إياك . . .
وماذا فى الإبصار يغريك يا بُنَيَّة ؟ لعمرك إن عينيك لتتفتحان على مكاره
وأسواء أنت الآن فى نَجْوَةٍ منها بفقد البصر . . . قسماً يا بنية ما كنت
لأُضِنَّ عليك بعينى كليهما لو كان لك فى الإبصار متعة أو جَدْوَى . .
وماذا يغريك بالجاه والسلطان ؟ إنه وهم وزيف وغرور ، أتبيعين حياة

التحرر والطلاقة التي تنعمين بها الآن، لتشتري بها عظمة جوفاء تثقلها
القيود والأغلال ، تحت إمرة جبار مسيطر ، لا فكاك لك من سلطانه ،
ولا أمان لك من طغيانه ؟ !

وتابعت الحاضنة حديثها متفننة في القول ، مستقصية في النصيح ،
والفتاة على صدرها ملقبة برأسها تسمع ولا تُحيرُ من جواب . . .

وتعاقب يومان كانت فيهما الفتاة تغادر الكوخ في ساعة السحر ،
وقد نبا المضجع بها من حيرة وضيق ، فتظل هائمة في مكان من الغابة تخفي
نفسها عن مرمى النظر ، حتى إذا دجا الليل ، وانعقدت الظلمة ، سارقت
خُطَاها إلى الكوخ ، متهالكة على الفراش .

وكانت مربيتها تنتظر عشيّة بباب الكوخ ، والقلق آخذ منها كل
مأخذ ، فما إن رأت الفتاة مقبلة حتى اعتنقتها في شغف ، وسألها في
اهتياج : ما وراءك يا بنية ؟

— لا شيء . . .

— ماذا أبطأ بك ؟

— كنت أستمتع بوحدي ، ناجية بنفسى . . .

— لقد فلتيتُ البقعة بحثاً عنك . . .

— لم أتجاوز البقعة !

— أخشى أن تكوني قد كتمت عني أمراً . . .

— لا تحسبي أني لاقيتُ من أحد !
 — خفني عنك ما تكابدين يا بُسَيَّةَ ، والله حافظك وملهمك
 سدادَ الرأي ...

— اطمئني ، فلست أكابد شيئاً ...
 ومضت الفتاة إلى فراشها تترامى عليه ، مطبقة جفניה ، كأنها تتودد
 إلى المنام ... والحاضنة حياها ترقبها بعين التفحص والاستشراق ،
 فتدرك من سمات وجهها المضطربة ، ومن أنفاسها المتلاحقة ، أنها في
 يقظة ... وإن الحاضنة لتلمح شفتي الفتاة تختلجان ، كأنهما تريدان
 أن تنفرجا عن قول ، فتفطن الحاضنة إلى أن سؤالاً يَمُورُ في صدر فتاتها
 حبساً يريد الانطلاق ، فيبعثها الإشفاق على أن تقول في لهجة من يتحدث
 إلى نفسه : قَدِمَ الأمير يسأل ، فأخبرته أن ليس في الكوخ من أحد ...
 وأمسكت المربية تبين أثر حديثها عند الفتاة ، فسمعتها تقول في
 صوت الحالم : حسناً فعلت !

وساد الصمت بينهما ، ولكنه صمت يحتدم فيه القلق والاهتياج ...
 ومَرَّ يومان آخران ، والفتاة لا تكلم حاضنتها إلا نَزْراً ، وقد ازدادت
 على نفسها انطواء ، تخرج في مطلع الفجر إلى مكان الغابة ، وترجع في
 دَجْوَةِ الليل إلى الكوخ ، مصروفة في نهارها كله إلى وجدانها تستمع
 إلى هتافاته ومناجياتِه ...

يا لله من ذلك الكائن العجيب الذى هبط عليها ، فبدّل أمنها خوفاً ،
وأحال سكينتها قلقاً . . . لقد أشاع هذا الرجل فى نفسها إحساساً جديداً
ذاقت منه ألماً لا ريب فيه ، ولكنه ألم لا تضيق به ، بل إنها لتجد له أنساً
وراحة . وأروحُ ما يكون هذا الألم لها حين يسلمها إلى البكاء ، فتنهّل
دموعها انهلالاً ينسجم مع نشيجها الموصول ! وماذا يبكيها ؟ . . . ألاّنها
تريد احتواءً بهذا الرجل وركوناً إليه ، على حين أنها تجد هذا الاحتواء
والركون مخفوقاً بالخاوف والأخطار ؟ أصادق هذا الأمير فيما أفضى إليها
به ؟ أمخلص وفى ، أم ماكر خدّاع ؟ ويا ترى ما حقيقة تلك البدعة التى
راعها بها ؟ . . . أيكون لها فى الإبصار حقاً إسعاد جديد ، أم يكون فصل
الخطاب بينها وبين ما تنعم به من عيش سعيد ؟ !

وتلك الدنيا الزاهرة الزاخرة التى يُفيضُ الأمير فى الحديث عنها . . .
أليست هى مغامرة غامضة تكمنُ فيها الأهوالُ والمعاطب ، من كل
جانب ؟ ! ما كان أجملَ دنياها الصغيرة الساذجة التى ظلت تحيا فيها
حياة الطمأنينة والأمان ؛ وما كان أحفَلَ هذه الدنيا عندها بأسباب الهناءة
والإسعاد ! ولكن هذا الكائن العجيب الذى سقط عليها ، شوّه عندها
ما عرّفته جميلاً ، وضيق ما أليفته رجباً . . . وإنها كتبرّمُ الآن بتلك
الجنة التى كانت لها رَوْحاً وريحاناً !

وما لها تشعر - بعد أن لم تكن تشعر - بأن حاضنتها أصبحت اليوم

تثير غضبها ، وتعكر عليها صفوها ، وتجعل عيشها نكدًا وغمًا ؟ ! إلى أين تلجأ ؟ وبمن تحتسى ؟ وارحمته لها !

إن أفكارها لتثير على أعصابها حرباً شعواء ، وإنها لتنهض من مكانها في زوايا الغابة ، لا تدرى لقدميها وجهة سير ، فتمضى وقتاً في جولة شعناء ، وإذا هي تُلقي نفسها قد أوشكت أن تبرز لأطراف الغابة ، فتدنو من مكان نعمت فيه يوماً بذلك اللقاء الطارئ الطريف الذي كان من جرائه ما كان !

وما تكاد تستيقظ أنها أشرفت على ذلك المكان ، حتى تتفرع راجعة القهقري إلى مكان الغابة ، تلتمس عندها حمايةً لنفسها من نفسها . . .
أما الأمير فقد ترك « هناء » في آخر مرة لقيها فيها ، وقد امتلأت نفسه ثقة بأنه قد اقتنص ذلك الظبي الشرود ، وأنه لن يستعصى عليه بعد اليوم . . . ليروضن هذا الظبي ، وليطوِّعنه حتى يجعل منه أليفاً طريفاً . . . ما أكبر زهوّه بأنه سيحمل إلى قصره صيداً لم يظفر بمثله صائد من قبل !

قضى الأمير ساعات ليله يرسم الخطة ، ويدبر الأمر ، ويُمنى النفس . . .

وفي موعد اللقاء من غده ، أقبل على الكوخ ينظر فتاته ، فلم يلفها في انتظاره ، فلم يجد بداً من أن يطرق باب الكوخ يسأل الحاضنة عن

« هناء » ، فأعلمته المرأة بأن الفتاة غادرت كوخها في رَوْثَق البكور ،
 فرجع الأمير إلى فُسطاطه ، تنساب به الخواطر . . . ولاحت على مُحِيَّاه
 ابتسامة يمتزج فيها الاطمئنان بالاعتزاز . . . ما برح الظبي يعاوده نفااره ،
 ولكنه في الشباك مَصِيد ! . . . إنه لآت لا سبيل له إلى الإفلات . . .
 قليل من الصبر ، تستبين به جمليَّة الأمر .

وألزم الأمير نفسه بأن يتلهَّى بالصيد هنا وهناك ، بيد أنه كان في
 الفينة بعد الفينة يرتاد أرجاء البقعة ، من حول الكوخ ، يترصد ويتحسس ،
 ولكن البقعة أبت أن تبوح له بسر الظبي النفور . . .

وفي ضحوة يوم ، والأمير بباب فُسطاطه ، تراءى له شخص الحاضرة
 يهرول نحوه ، فلما قاربت الحاضرة موقف الأمير ، بادرت إليه تقول :

أين « هناء » ؟ رُدّ ابنتي على !

فألقي عليها الرجل نظرة دهشة ، وهو يجيب : ماذا تعنين ؟

— إنها عندك . . . أتريد أن تخفيها عني ؟

فأمسك بكتفها وهو يقول :

كُفِّ عن هذا الهراء . . . ما خطبُ « هناء » ؟

— أليست في خيائك ؟ إنها لم تَبِتْ في الكوخ . . . وما خلا الكوخ

منها ليلة قبل هذه الليلة !

— إني لم أرها منذ أيام ، فأين ذهبت ؟

فضربت المرأة صدرها ، وقد غلبها النشيج ، وهى تقول :
يا للنكبة ! . . . أين الفتاة ؟ اصدُقْنى بربك ، لا تمزق نياط قلبي !
— أقسمتُ ما رأيته ولا احتواها خبايى ولا عرفت لها مذهباً . . .
ولكن اطمئنى ، فسنبحث عنها جميعاً ، وإنا واجدوها لا محالة .
وتقدم الأمير إلى أعوانه بأن ينتشروا فى أكناف البقعة ينشدون « هناء »
وما لبث أن حَثَّ خطاه فى طليعهم يَدْرَع الأرض فاحصاً مستقصياً
ينادى ولا من محيب .

ولما انسدلت أستار الظلام عاد الأمير إلى فسطاطه ومعه أعوانه ،
منهوكى القوى ، مبهورى الأنفاس ، على وجوههم غبرة اليأس والإخفاق .
وكرر الأمير بحثه واستقصاءه هو وأعوانه أياماً موصولة ، دون أن
يَقِفُوا « هناء » على أثر . . .

واشتد الضيق بالأمير ، وملأ عليه المم أقطار نفسه ، فلم يكن يَطْعَمُ
الراحة والسكينة ، واشتعلت أخلاقه عنفاً وحدة ، فتحاماه أعوانه ،
وأدركوا ما يعانیه من محنة عسراء . . .

وأصابت الحاضنة لئوثة ، فكانت تهذى ، وكانت تهجم على مقام
الأمير بمنكر القول ، تزعم أنه السبب فيما جرى ، فلم يَبْقَ للأمير عليها
صبر ، ولم يجد بداً من إقصائها فى معزل ، حتى لا تقع عليها عينه ،
ولا يرقى صوتها إلى سمعه .

وارتحل الأمير عن البقعة ، قافلاً إلى قصره .
ومضت به ركائب الأيام . . .

وراع أعوان الأمير ذلك الانقلابُ الذي طرأ عليه ، إذ كفَّ عن
الترحُّل ، وعفَّ عن الصيد ، بل لقد حرَّم على أهل إمارته أن يسدِّدوا
سهماً إلى ظبي شرود !

العَوَامَة

« الإسكندرية » موطنه ، والتجارة مجد أسرته ، ولكنه هو لم يتجر قط . . .

وليس الرجل بزاهد في كسب ، ولا راغب عن مال ، وإنما زُهدُه في الجهد ، ورغبته عن السعي ، فهداه فكره إلى أن يبيع مستجره ، ويستبدل بثمنه مبنى وافر الرِّيع .
حبّذا أطايبُ العيش عنده ، ولا حبذا ما في الدنيا من إرهاق وإعنات يرفضّ له عرق الجبين . . .

إنه من أولئك النفر السعداء الذين تجلى لهم سر الحياة ، يؤمنون بأنها ممرّ ، وأنها يقظة ساعة بين نومين : أزليّ ، وأبدىّ . . . فما أجدر الحىّ بأن يجعل تلك الساعة لقلبه متعة ، ولنفسه رضا . وما أخسر صفقة من يحيل دنياه جميعاً من المتاعب والجهود !

« عمران أفندى » هذا قنوع فيما رسمه لنفسه من حدود ، أو بالحرى فيما رآه محدقاً به مفروضاً عليه من هذه الحدود .

لئن كان اليوم تزايدت عنه مهنة التجارة ، لقد بقيت له على الرغم

من ذلك شِيمة التاجر ... فهو في حياته اليومية الراتبة لا يُعَفِّي نفسه من محاسبة ومساءلة ، ماذا أنفق ؟ وماذا اقتصد ؟ ويده مقبوضة بالطبع ، لا تنبسط إلا بعد مشاورة ومداورة يتخاصم فيها العقل والهوى .

وللرجل مكانة بين جِيرته في حيِّ « العطارين » ، يتمثلون له وقوفاً إذا بدا ، ويبدءونه بالتحية إذا أقبل ... وما كان لشحه أن يُقِل حفاتهم به ، بل لعل هذا الشح كان مجلبة لأنظارهم نحوه ، والتفافهم حوله ، فهو في حساب أنفسهم كفاء لأسباب الغم والإثراء ، جدير بالتقدير والإعلاء ، وحسبهم من فضيلته أنه ما كان امراً سوءاً ، وما فَرَطت منه أذية لأحد ... فما للناس وله ؟ وماذا يريدون منه فوق السلامة من شره ؟ ذلك هو الخير كل الخير !

وكان « عمران أفندي » قد استبان في بدانة ، وأدرك أوصاله ترهّل ، فظهرت حول عينيهِ طيّات ذوات ظلال ، وتدلّ كَيّ دون ذقنه لغد مهيب ، ونبأت تحت قبائه كرش تزيده مهابة ... وليست الخمسون التي قضاها الرجل على أديم الأرض هي التي أحدثت فيه تلك التعاجيب ، وإنما هي وليدة حياته التي أوجبها على نفسه ، حياة التعمّد والحمول .

ولسنا نغمط الرجل حقّه ، ونجحد نشاطه ، فعلينا أن نسجل له دأبه على الخروج عصر كل يوم إلى حانوت المعلم « موسى » الحلاق ، قاطعاً بخطوه الوئيد ذلك الطريق القصير بين البيت والحانوت ...

وهناك يقضى الأصائل ، آنساً بذلك المكان الهادئ ، مجاذباً رواده ألوان الحديث . وكيف لا يؤثّر حانوت الحلاق على كرسىّ فى مشرب ، وإن هذا المشرب ليقضيه إنفاقاً لأبد منه ، ما أغناه عنه !

والرجل يحمد الله على نعمائه ، ويقيس هذه النعماء بتلك المقاييس التى اطمأن بها فى عيشه : الوجبات الثلاث يصيب طعامها فى شهوة وإقبال ، وضجة القيلولة يقصر بها أمد النهار الفارغ ، ونومة الليل العامة بالغطيط لا يشوبها أرق ولا قلق .

وكاد الرجل - فى ريق شبابه - أن يستجيب لنداء الشباب ، فيختار له زوجاً كأترابه ولداته ، ولكن شيمة التاجر هبت بين جوانحه تراقبه وتحاسبه ، وترّوعه بألوان النفقات والتكاليف ، وأبت عليه فطنته أن يستسلم لزوجيّة وراءها أحمال المتاعب والمشاقّ . . . وكيف تسوّّل له نفسه الزواج ، وهو امرؤ تجلّى له من سرّ الحياة أنّها راحة وسكينة وهديء ، ومن ثمّ اكتفى « عمران أفندى » بنصف دينه ، دون أن يستكمل بالزواج نصفه الآخر ، خشية أن يخسر الدين كله فى هذه المغامرة . وما كان له أن يغامر ، وهو كما علمت يحمل بين ضلوعه روح تاجر هيّاب قسّوع .

ولا تحسبنّ الرجل كان خالى الحياة من تجديد ، فالحياة تملى على كل إنسان مهما يكن من تحفظه لوناً يخرج به عن جمود المألوف . . .

وكان تجديد الرجل يتمثل في رحلة صيفية يقوم بها ضحوة كل يوم في أشهر القيظ ، فيقتحم ذلك السُّور المضروب عليه بين البيت وحانوت الحلاق ، ويمضي بعيداً غير لاو على شيء ، متجهاً إلى مقرّ اختاره على شاطئ البحر في منطقة « الأنفوشي » ، وهناك يجتلب من المشرب القريب كرسيّاً له ، فيجلس عليه ، خالياً بنفسه ، مستنشياً عبر الماء ، عن كَثَب من مَدَّات الأمواج .

وبينا هو يطوف بأنظاره بين السابحين في البحر ، إذا هو يسبح في آفاق رقيقة تنهى به إلى غفوة حاملة .

على هذه الوتيرة كان يحيا « عمران أفندي » : مثالا في الدقة لا يعلوه مثال ، وافر الحظ من طمأنينة النفس ورخاوة البال ، آمناً في سربه من عبث الأحداث وتقلبات الأحوال .

ويوماً والرجل على أهبة الإياب إلى بيته ، بعد أن استوفى متعته من البحر ، فاستنشق نسيمه ، وراقب الضارين فيه ، وغفا غفوته المحببة . . . إذا هو تُجَاه بائع جوّال يتخطر ، وعلى كتفه حلقة من المطاط يطلق عليها اسم « العوامة » ، يتخذها من هو حديث عهد بالسباحة ، ليستعين بها على المراتة والتمرس ، فتحميه من الغرق ، وتتيح له أن يلعب بالموج كما يلعب صيدُ البحر !

ووقف البائع يتمدّح « بالعوامة » ، ويتغنى بما لها من كرائم المزايا ،

ويتحسّر على أنها تباع بثمن بخس يبعث على الدهشة والعجب ، ولم يجد « عمران أفندى » بذّا من أن يضيف إلى معلوماته جديداً في شأن هذه الحلقة من المطاط ، وقد استرعى نظره منها أنها كبيرة الحجم ، جيدة الجلد ، كأنها زورق صغير يستطيع السابح أن يمتطيه فيغالب به دفق العُباب .

ولما لمح البائع نظرة الرجل تنساق إلى « العوامة » في تحديق ، أيقن أن هذه النظرة فرصة سانحة للاستغلال ، فأخذ يعرض جوانب « العوامة » تحت وهج الشمس فتلتمع حمرتها وتتضرج ، ثم راح يغمز مدارها فتهتز ، مؤكداً أنها على ضخامتها ومثانتها سهلة التناول طيعة المراس .

وما لبث البائع اللبق أن رغب إلى « عمران أفندى » في أن يتحسسها ليختبرها ، وهو يقول :

انظر وتعرّف . . . ليس حتماً أن تشتري ، فلتتفرج .

ولم يجد « عمران أفندى » ضيراً عليه في أن يمدّ يده إلى الحلقة يحسّها ويتفحصها ، وما عثم أن ردها إلى البائع ، قائلاً : حقاً إنها متينة .
— وثمنها زهيد .

— لا بأس .

— إذن لا تتركها تفلت من يدك . . .

— لا نفع لها عندي .

وحث « عمران أفندي » خطاه ، فجأر البائع يلاحقه بقوله :
يا سعادة « البك » لو اشتريتها ورميت بها في بيتك لكنت الرابع .

— لا أضع مالى فيما لا نفع له عندي .

— قسماً يا سيدى إنها لقطة . . . وقد كان معى منها عشر حلقات ،
فبعت تسعاً بضعف الثمن الذى أعرضه الآن ، ولولا أن هذه الحلقة هى
الأخيرة ، وأريد التخلص منها والتفرغ لشأنى ، لما رضيتُ أن أعرض
عليك شراءها بثمن بخس . . . عشرين قرشاً .

فتابع الرجل سيره يقول : لا أريد . . . لا أريد .

وحاصره البائع بألوان من الإغراء ، وهو يظهر له الرغبة فى المساهلة ،
حتى عرضها عليه بعشرة قروش . . . فعجب « عمران أفندي » من أمر
هذا البائع ، وأيقن أن فيه حقاً وغبوة ، فهو فى تقديره قد كسب ببيع
الحلقات التسع كسباً غير قليل ، فهان عليه أن يبيع الحلقة العاشرة
بيع الغبن والخسار .

وأطمعه ذلك فى أن يستغل حق البائع وغبوته ، فأبدى إهمالاً
وإعراضاً ، فما زال به البائع حتى قال له :

كم قرشاً تدفع ثمناً لهذه « العوامة » ؟

فندت من فم « عمران أفندي » هذه الجملة فى غير مبالاة ولا عَمَد :

لا تساوى إلا خمسة قروش .

فصاح البائع يقول :

هذا حرام يا سعادة « البك » . . . خمسة قروش ؟ !

فأقسم سعادته قائلاً : حلفت لا أدفع أكثر من خمسة قروش .

وتابع خطوه يعلو بصدره ، وإذا هو يرى الرجل يدركه قائلاً :

خذها يا سيدى حتى أنصرف لشأنى ، والله يعوضنى منها .

ومشك « عمران أفندى » يقسم نظره بين « العوامة » وبائعها ، فلم

يبقى لديه شك فى أن الصفقة رابحة ، وأن خمسة قروشه لن تذهب سدى .

واشترى « العوامة » ، محتملاً إياها إلى الحى الذى يقطن فيه ،

وشاء ألا يذهب إلى البيت قبل أن يمر بجانب صديقه الحلاق ، لكى

يريه اللقطة التى سقط عليها فى يومه لقاء ثمن رخيص ، فامتدح الحلاق

صنيع صاحبه ، وهو يعدد محاسن الحلقة وفوائدها ، فشاعت الغبطة

فى أعطاف الرجل ، ونهض « بعوامته » إلى بيته مجبور النفس بما كسب .

وصباحاً جرى « عمران أفندى » على عادته فى الذهاب إلى شاطئ

« الأنفوشى » يتخذ مجلسه المألوف ، وألقى نفسه هذه المرة يرقب رواد

الشاطئ فى حمية وحاس ، وهم يتقبلون فى ملتطم الأمواج ، وبخاصة من

كان منهم يتطوق بحلقة المطاط فى السباحة والعم ، وليث على حاله

يراقب ويتقصى ، دون أن تذوق عينه الغمض كما كان شأنها من قبل .

وفى مرجعه إلى البيت عند الظهيرة ، كان يحس نشطة الشباب
وبهجة الحياة ، فما إن احتواه بيته ، حتى اختلج ملابسه ، وعمد إلى
« العوامة » ينتطق بها حيناً ، ويتقلدها آناً ، ويقتعدها مرة ، محاكياً في ذلك
صنيع المستحمين والسابحين بحلقات المطاط في البحر ، وهو يوالى الضرب
بيديه ، والدفع بقدميه ، كأنه يغالب الموج الزاخر .

وتتابعت أيام على الرجل ، وهو يمثل هذا المشهد لنفسه خاصة في
كيسر بيته ، حين يثوب إليه بعد انقضاء جلسة الشاطئ .

ومرة وهو يداعب حلقة المطاط ، عاجله ضيق ، وسأل نفسه :
أتراه قد بذل قروشه ثمناً لهذه الحلقة ، لكي تظل في زاوية من البيت
العبوة ، أو زخرفاً وزينة ؟ !

وبينما هو عائد ظهر يوم إلى البيت ، وجد خطواته تعرج على
متاجر الثياب ، وإذا هو يشتري لنفسه لبس البحر ، وأعطافه تترنح من
حبور وابتهاج . وأمّ بيته ، مسارعاً إلى خلع ملابسه ، وارتداء لبوس
البحر الجديد ، وما هي إلا أن أقبل على « العوامة » يعابثها وتعايشتها ،
كأنما هو طفل هاجسته لعبة طريفة ليس له بمثلها عهد . ومثل « عمران
أفندي » قبالة المرأة ، يتطلع إلى خياله في ذلك المظهر الجديد ،
وجعل يتساءل : متى يهبط البحر ؟ وفى أىّ منحى منه ؟ أيختار شاطئ « الأنفوشي » ؟
واستعاذ بالله من أن ينزل هذا الشاطئ الذى يجمع الأخلاط من

الجاهير ، وما يليق ذلك به ، وهو وجيه القوم ، وصاحب المكانة الكريمة في الحى . ولعل في خاطره اسم « سيدى بشر » فإذا يمنعه أن يختار الشاطئ هناك ؟ ... لقد طالما سمع باسمه ، وعرف أنه مثابة الأخيار ومهبط السّرة ، فليكن له ثمة مكان ... وهرع إلى صديقه « موسى » الحلاق يستنصحه ، فجعل الحلاق ينظر إلى صاحبه نظرة الدهشة والعجب ، ولكنه ما لبث أن انساق في تفكير وتدبير ... وأشرقت على محيّاہ ابتسامة غامضة ، وأقبل على « عمران أفندى » يربّت كتفه ويقرّل : نعم الاختيار ... ولكنى أحب لك أن تستأجر ظلة^(١) خاصة بك ، فإن مقامك يقتضى ذلك ، كما يفعل أندادك في رفعة القدر . — أستأجر ظلّة ؟ ... إني سأتردد على البحر بعض أيام ، أفمن

أجل فترة قصيرة أستأجر ظلة خاصة ؟

— وأين تخلع ملابسك إذا أردت النزول في البحر ؟ وأين ترتديها حين تخرج إلى الشاطئ ؟ أفترضى أن تفعل ذلك على أعين الناس كما يفعل الدهماء ؟

— لا بد إذن من استئجار ظلة ؟

— ولم لا ؟ أتحسب أن الظلة نفعها قليل ؟ إنك تستطيع أن تمكث فيها عامة يومك ، فتكون لك مسكناً وممتزهاً طوال الصيف ... في

مُكِنْتِي أَنْ أَحْصِلَ لَكَ عَلَى ظِلَّةٍ بِأَجْرَةٍ لَا تَذْكَرُ . . .

— نَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ .

— إِنِّي سَأُخْدمُكَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ .

وَفِي عَصْرِ غَدٍ ، طَرَقَ الْحَلَّاقُ بَابَ « عِمْرَانَ أَفْنَدِي » مَبْهُورَ الْأَنْفَاسِ ،
وَهُوَ يَقُولُ لَهُ : تَدَارِكُ الْأَمْرَ قَبْلَ فَوَاتِهِ . . . فُرْصَةٌ لَا تَعُوضُ . . .
إِنَّكَ رَجُلٌ مُوَفَّقٌ ، وَطَرِيقُكَ دَائِمًا مَيَسَّرٌ .

— مَاذَا فِي الْأَمْرِ ؟

— ظِلَّةٌ جَمِيلَةٌ ، كَأَنَّهَا بَيْتُ أَنْيَقٍ . . . فِي مَنطَقَةِ « الْمَنْدَرَةِ » ، أَنْظِفُ بَقْعَةً
فِي الشَّاطِئِ عَلَى امْتِدَادِهِ ، وَأَمَّا الْكُلْفَةُ فَلَا شَيْءَ ، بَلْ هِيَ بَابُ رَيْحٍ خَصِيبٍ .

— كَيْفَ ذَلِكَ ؟

— إِنَّهَا ظِلَّةٌ اضْطُرَّ صَاحِبُهَا إِلَى عَرْضِهَا لِلْبَيْعِ بِشَمْنٍ ضَخِيلٍ ، فَإِذَا
اشْتَرَيْتَهَا أَجَرْتَهَا لغيرِكَ وَقَتًا ، وَاتَّخَذْتُهَا لِنَفْسِكَ وَقَتًا ، وَإِنْ أَجَرْتَهَا فِي
نِصْفِ الْمَوْسَمِ وَحْدَهُ رَيْعٌ مُوَفُورٌ .

— أَنَا أَشْتَرِي ظِلَّةً ؟

— يَا سَيِّدِي ، لَقَدْ كَسَدَتِ الْمَتَاجِرُ كُلُّهَا ، إِلَّا تِجَارَةَ الظَّلَلِ عَلَى
الشَّوْاطِئِ ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ هِيَ الرَّابِحَةُ الرَّائِجَةُ ، وَالنَّاسُ يَكْسِبُونَ الْمِثْلَاتِ
وَالْأُلُوفَ مِنْ شِرَاءِ الظَّلَلِ وَمِنْ تَأْجِيرِهَا . فَجَرَّبْتُكَ ، وَلَا تَدْعُ هَذِهِ الْفُرْصَةَ
تَفَلْتُ مِنْ يَدِكَ ، وَلَا خُسَارَةَ عَلَيْكَ إِطْلَاقًا فِي تِلْكَ الصَّفِيقَةِ .

— ننظر في الأمر .

— عليك أن تخبرني غداً قبل الظهر ، فإن المتنافسين في شراء الظلة كثير . وأخشى أن يظفر بها قبلك أحد .

وأرق الرجل ليلته محتدم الفكر لا يستقرّ ، فهو يستعيد حديث الحلاق ، ويزن هذه المغامرة بمختلف الموازين . فلما ارتفع النهار ، همّ بالخروج ، فصادفته « العوامة » في ركنها كأنها تناديه ، وعن كَثَبٍ منها لبوس البحر مخططاً بالحمرة القانية كأنه يسترعى إليه نظره .

وفيما هو مهتاج المشاعر ، يرجع البصر هنا وهناك ، إذ سمع صوت صديقه الحلاق بالباب يقول : افتح يا « عمران أفندي » افتح .

ودخل الحلاق يُبادر الرجل بقوله : كادت تقع الكارثة لولا لطف الله ، ولولا فطنة صديقك المخلص لك الساعي لحيرك . . .

— ماذا ؟ كفى الله الشر !

— رجل من الكبراء عرض ثمناً غالياً للظلة ، فتداركت الأمر ، وقلت لصاحبها : « إننا اشتريناها منذ أمس ، وكان الكلام كلام رجال » وأعطيته العُربون ، وما زلت به حتى قبّله . . .

— أدفعته له فعلاً ؟

— أكنت تظن أني أقصّر في ذلك ، فأضيع عليك تلك الفرصة النادرة؟ فأرتج على « عمران أفندي » وفقر فاه . . . فاسترسل الحلاق في

كلامه : أنت تعرف أنى لم أرد إلا مصلحتك ، وما فعلت ذلك لغرض ،
فلست مطالبك بسمسرة ، وحسبى أنى قضيتُ لك حق الصحبة ،
ورعيتُ لك واجب الود . ثقب أن الصفقة رابحة كل الربح ، وسيعود
عليك من الرِّيع أضعاف ما أديت من ثمن .

وبعد يومين اثنين كان « عمران أفندى » فى ظلته الحديدية ، يدق
مساراً كبيراً ليعلق به حلقة المطاط ولبسوس البحر . . . ثم جعل يتفقد
أرجاء الظلة الحالية ، ويتنقل فى نواحيها فترة بعد فترة ، وبحواره صديقه
يزين له ما صنع ، ويبارك له المكان .

وترافقا يجوزان بالظلل المجاورة ، والحلاق يُرى صاحبه ما احتوته
من أثاث ، وهو يقول : لم يبق إلا أن تعمُرْ ظلتك ببعض ما يلزم
من متاع ، وفى السوق من أثاث المصيف أشياء جيدة . . . رخيصة !
ورجعا معاً إلى المدينة فى أخريات النهار ، يجوسان خلال سوق
الأثاث ، فاتخذت الظلة بعد أيام حلة قشبية تسر الناظرين . . .

وتجلىَّ « عمران أفندى » على بابها متربعا على كرسى من كراسى
المصيف ، وهو يتفرّس فى المستحمين ، منتشياً بذلك المنظر الرائع ،
مستشعراً متعة الانطلاق فى مزدحم الماء . وقد مدَّ يده إلى حلقة المطاط
يداعبها فتلين لغمزاته ، وكأنه يواعدُها على الترافُق فى اقتحام البحر .
وبات الرجل ليلته مُزْمَعاً أمراً لم يعد منه بد . . .

وبكرةً قصد الظلة ، فوق نظره أول ما وقع على المسمار العظيم
 العامر بحمله ، وقد هبطت عليه أشعة الشمس ، تنهيج بها حلقة المطاط
 والخطوط الحمر في لبوس البحر . . . فانشرح لذلك صدر الرجل ،
 وألقى ما عليه من ثياب ، وما أسرع أن ارتدى اللبوس البحرى ، وتطوّق
 « بالعوامة » وخرج فى ثقة وتؤدة ، يبعثر نظراته ذات اليمين وذات الشمال .
 وسار متبخراً إلى منحسر الماء ، وجلس باسطاً قدميه لا يكاد يناهما
 الموج ، وقد تجمعت من حوله لمة من الشبان اجتذبتهم هذه الشخصية
 الطريفة ، وكانوا يدفعون بأجسادهم إلى البحر فى جسارة وجُرأة ،
 ذهاباً وجيئة .

وأطال « عمران أفندى » فترة جلوسه لا يتقدم ولا يتأخر ، فأقبل
 عليه أحد أولئك الشبان يقول فى تضاحك وتحجّب :
 يبدو أن سعادة « البك » لم ينزل البحر قط .
 فرفع الرجل وجهه إلى الشاب يقول فى سطوة :
 أنا ؟ . . . إن البحر يعرفى قبل أن تولد يا بنى !

— وهذه العوامة ؟

— كل ما فيها أنها تعين على تأدية بعض الحركات الرياضية ،
 والألاعيب السباحية . . .

وتلفت حواليه ، فإذا الشبان ينصتون إليه ، ويحدّثون فيه ، فما هى

إلا أن ألقى نفسه ينهض ، وكرشه تشق له الطريق ، مستقبلاً دفعات
الموج الرجراج ، تلاحقه صيحات الشبان هاتفين مصفقين .

وبعثة دارت به موجة عارمة ، فألقته في اليم ، وما كاد يستفيق من
غمرة ، حتى عاجلته موجة أخرى تتوغل به في صميم الماء ، فملكت
الرجل دهشة ، وسرت فيه رهبة ، واستبد به ارتباك ، وهو يتلقى على
وجهه ضربات اللجج الدافقة ، فأحس أنفاسه تحتبس ، وعينه تغيم . .
وتفحص حلقة المطاط بيده يستوثق ، فاطمأنت إليها نفسه ، وازداد بها
تعلقه وتشبثه ، ولكن الماء ظل يعدو عليه بلجة بعد بلجة ، فيكاد يخفيه ،
وهو يعالج الخلاص ما وسعه الخلاص . وازدادت الحال بالرجل سوءا
على سوء ، فلم يجد له من عزم ، وحاول أن يصيح مستغيثاً ، فلم يجد له
من صوت . . . وتحسس العوامة من حوله ، فإذا هي قد أفلت من
جوفها الهواء ، وإذا هو يتهاوى إلى الأعماق .

وفي غداة غد أصبحت ظلة «عمران أفندي» يجم فيها الصمت والكآبة .
وتسللت أشعة الشمس إلى تلك الظلة ، فسقط أول شعاع منها
على ذلك المسمار العظيم يحيه تحية الصباح ، بيد أن المسمار كان في
شغل عن التحية بوحشته واكتئابه ، فقد لبث وقته الأطول يسائل
نفسه : ماذا أبطأ بلبوس البحر وحلقة المطاط ؟

ولكن سؤاله هذا ظل بلا جواب !

هَدِيَّة

كيف لا تكون « حسنية » زوجة سعيدة ؟ لا سبيل إلى الشك في سعادتها ، فهي تحب زوجها ، وزوجها يحبها ، والودّ بينهما أوضح من أن يحتاج إلى دليل . حياة مطمئنة ، تهادت بهما وادعة رفيقة خلال السنوات الخمس التي قضياها زوجين ، لم يعكر صفو علاقتهما شوب ، ولم ينشَبَ بينهما كبير خلاف .

كانت « حسنية » تستمرئ هذه الأفكار هائلة مغتبطة ، وهي ماثلة في مستشرف الدار ترمي بنظرها إلى الأفق البعيد . وما كانت هذه أول مرة تتحدث فيها إلى نفسها بما تنعم به من هدوء بال ، فإن المستشرف طالما سجل لها طمأنينة قلبها ، وصدورها تتناجى فيه تلك الخواطر الرقاق .

بيد أنها على الرغم من ذلك كله ، لا تملك أن تكتم الآن ما تحس به من طارئ جديد . . . من قلق لا تعرف له مآتى .

وشرد بها الفكر . إنها وفية لزوجها ، وإن زوجها وفي لها أيضاً ، لا شبهة في وفائه ولا ريب ، وماذا بعد الوفاء ؟ حسَبُ الزوج أن يكون

وفياً ، وليكن بعد ذلك ما يكون ! الزوجة فى مُكنتها أن تغفر لرجلها كل ما قد يسوءها به من متاعب ومناكدات ، إلا أن يخونها ، فما للخيانة باب إلى الغفران . ليست هذه الخيانة إلا قذيفة صائبة تهدم عش الزوجية على رأس صاحبيه جميعاً ، فلا تدعه إلا هشيماً تذوره الرياح .
 أى جديد فى حياة « حسنية » يسوغ لهذا القلق أن يغشى أفق حياتها الصحو ؟

لقد فصلَ زوجها عن الدار فى الغداة ، كما تعود ، وجهته مقر المحكمة التى يستقبل فيها قضاياها ، وتحت إبطه حقيبة المحاماة . لقد أصاب الرجل فطوره مع زوجه ، وما كاد يهيم بالخروج ، حتى أودع خدّها قبلة المحبة والوفاء . . .

كل شىء يجرى فى عنانه ، كما هو مألوف ، إلا تلك الغاشية من القلق تحسبها « حسنية » واغلة تغزو حصنها الآمن المكين . . . القلق الصحيح لا يساور الزوجة إلا حين تظن بزوجهما الظنون ، فإذا هو فى حِسبانها غير حافظ للأمانة ولا راع للعهد . . . وإن « حسنية » لوائقة بزوجهما أى وثوق ، فكيف لهذا القلق العابر أن يكون ؟ ترفعت « حسنية » عن تلك الصغائر التى تهافت عليها الزوجات الغريرات ، فما سولت لها نفسها أن ترتصد لرجلها ترقب حركاته وتصرفاته ، أو تؤوّل ما يلفظ من قول ، أو تتفقد ما له من خاصة أوراق ، أو تتفرس فى ملامحه لتستشف

سريرته الخافية . في معتقد « حسنية » أن الصراحة والمجاهرة رأس الحكمة ، وأن الحيل والمداورات لا تليق بكرائم الزوجات .

هذا زوجها يقسم حياته قسمةً مناصفةً ، فيهب زوجته شطرها ، ويحتفظ لقضاياها بالشرط الآخر ، وليس لديه بعد ذلك من فضلة يسخوبها على أحد ... إنه محام نابه الذكر ، شهيدته يوماً فكان عندها مثار إعجاب : طلاقة لسان ، وسرعة بديهة ، إلى جبين مشرق ، ونظرات تتوقد ، وفوق ذلك كله زى أنيق يدل على ذوق رفيع . وكان بينهما الزواج . فواصل الرجل ما هو معهود من أناقته ، ولكن الزوجة تلاحظ اليوم أنه أحرص على التأنيق في الملبس ، والتفنن في التطرية ، وما كان لهذه الظاهرة أن تثير في نفسها شيئاً ، فهو من أجلها يتأنق ، ولها يتطيب ويتزين ، وليس لذلك مغزى إلا أنه يبتغى مَرْضَاتِهَا بكل سبيل .

زوجها في رائعة شبابه ، وفي مستهل سعيه ، هدفه أن يدين له شرف الشهرة ، وأن يتوافر له مجدهُ الثراء ، وهو إلى هدفه ناشط الخطو يشق الطريق ... عنده أن الشهرة والثراء توأمان ، فمن كان مشهوراً سلك إليه المال سبيلاً ، ومن كان ذا مال توافقت إليه الشهرة من كل مكان ، فحيثما تجدد أحدهما تلق الآخر في ركابه ... وكان هذا الزوج حريصاً على التماسهما معاً في آن ، ليظفر بهما معاً على أوسع

نطاق ، وإنه لبالغ مآربه في وقت آت ، وكل آت قريب .
 وما جنح إليه الرجل في حياته أن يكون مقتصدًا ما قدّر ، حتى
 كان إلى التّكشف أميل ، متوخياً أن تتجمع لديه في أقصر مرحلة
 خيرة ثروة ، ونواة رأس مال . وكان لزوجته فضل مال انتهى إليها
 بالإرث ، وإنه لجدير أن يُعَيّن ناشئاً في بناء مجده ، وتنمية مورده ،
 إذا أحسن تسميره . . . وهل تأبى « حسنية » أن تسلم مالها لزوجها يدبره ،
 وهى التى وثقت به ، وآمنتُ بأنه لم يطلب يدها يوم تزوجها من أجل
 هذا المال ، ولكنه طلب يدها من أجل الحب ، حبه إياها ، من أجله
 وحده . . . لقد أحبها « أحمد » منذ النظرة الأولى ، وما برح بها مشغوف
 القلب على توالى السنين الخمس ، كشأنه في اليوم الأول . . . لا غرو
 أن تطلق يده في مالها ، وأن تشعر بالطمأنينة إلى حزمه وحكمته في
 تصرفه . . . حقاً كانت في بعض الأحيان تتبرم بإمعانه في
 الاقتصاد ، وتَضيقُ بجرمانها ما تتطلع إليه نفسها من زينة وملبس .
 بيد أن الذى لا شك فيه عند « حسنية » أنها إن ضاقت اليوم شيئاً
 وتبرمت شيئاً فذلك لخيرها ولخير زوجها معاً في غدتهما المرجو .

شدّ ما تُزْهَى « حسنية » بزوجها محامياً مرموق الاسم . . . وترى
 من حقه عليها أن تعينه على أن يكسب لها قُطوف ذلك الفخار ، فهى
 تهى له فرصة العمل في البيت ، لا تشغله فيها بشيء ، فيقضى وقته

الأطول خالياً في حجرته ، عاكفاً على أصابيره وأسانيده ومراجعته . . .
 وإن « حسنية » لتستهزئ بكل زوجة تغار على رجلها من عمله وما يتصل
 به : أوراقه التي يسودها أكثر نظراته ، مكتبه الذي يستأثر بأطيب
 ساعاته ، دنياه الخاصة التي تملك عليه عواطفه ونزعاته . هيات أن
 تغار « حسنية » من حجرة « أحمد » وما حوت ، بل إنها لتستشعر لهذه
 الحجرة وما فيها حرمة وتسجيلة ، فهي تتعهد لها تنظيفاً وتنسيقاً ورعاية .
 وبخاصة ذلك الصَّوان الذي اختصه زوجها بأسرار عمله ، واستأمنه على
 جِسام المستندات .

على أن « حسنية » مع ذلك تعاتب نفسها في الفينة بعد الفينة على أن
 صورة هذا الصَّوان لا تبرح مُخَيَّلَتها ، مثيرة في دخيلتها غرائب الوسوس .
 يا عجباً . . . إنه صَّوان كسائر ما في البيت من أصونة ، ولكنها تراه
 يقبع في زاوية من الحجرة جهم الصفحة ، كأنه صنم مثاله يأبى أن
 يُطلع أحداً على غيبه . وحقاً لم تطلب « حسنية » إلى زوجها مرة أن
 يترك لها مفتاح هذا الصَّوان لتستجلى طواياه ، فقد عز على كبريائها
 أن تنزل إلى هذا المطلب ، وانتظرت أن يبادئها زوجها بذلك من تلقاء
 نفسه ، إلا أنه لم يفعل . . . ولكن هل لذلك كبير شأن ؟ وماذا في
 الصَّوان إلا ما تعلم من أسانيد يخشى عليها زوجها الضياع ، فهو يحتفظ
 بها في ذلك الحِرْز الحريز ، يُحكِّم إغلاقه ، ولا يدع لأحد أن ينفذ إلى

ما فيه . وأكبر ما كان يسوءها من منظر ذلك الصَّوَّان العتيّ أنّها تشعر
 كأنه ينظر إليها عاقد الجبين شامخ الأنف ، يقول : إني أعرف
 من أمر زوجك فوق ما تعرفين ، وأحفظ من أسرارها ما ليس لك به علم .
 لا تنسى « حسنية » يوماً وفدت فيه على زوجها وهو وراء مكتبه
 يعمل ، فألفت نفسها في مجرى الحديث تطلق ضحكة مجلجلة ، ولما
 سألها زوجها : ماذا يضحكها ، والحديث جدّ ؟

أشارت إلى الصَّوَّان تقول : حانت مني نظرة إلى هذا العجوز
 الدميم ، فأثار سخريتي . . . ألا تراه خليقاً بأن أضحك منه ؟
 فابتسم الزوج مجيباً :

ربما . . . ولكنه على أية حال وفيّ أمين . . . وحسنه !

فصاحت « حسنية » تعقب عليه بقولها :

لم يعد لائقاً بالعصر الحديث . . . وأنت رجل تجديد ، فما إبقاؤك عليه ؟

— وماذا تريدني أن أصنع به ؟

— تستبدل به صواناً آخر محدث الطراز .

— يعزّ على أن أفرط فيه بعد هذه الصحبة المديدة .

— وما يدعونا إلى أن نسلّمه ؟ . . . فلنقله إلى المطهى يطمئن فيه

إلى ركن . . .

فهمهم « أحمد » : فكرة صائبة . . . لها يوم ننفذها فيه .

ولكن الصَّوَّان ما فقي قائماً في مكانه لا يَريه ، بل لقد ازداد على الأيام تأصلاً وثبات مقام ... فقراه « حسنية » كأنما يبدى لها عنجهيته وصلفه ، وكأنما يتنفخ بأسراره وخباياه ، فتحسه يحدها بأنظار زراية وشمات ، ولسان حاله يقول : إني أعرف من أمر زوجك فوق ما تعرفين ، وأحفظ من أسراره ما ليس لك به علم .

تواردت هذه الصور والذكريات والخواطر كأسراب الطير تحوم في مُخَيَّلَة « حسنية » وهي في مستشرف الدار ، تسرح النظر حيث تسطع الشمس على جبين السماء .

وما لبثت أن أحست بالصداع يغزو رأسها ... إنه يعروها بغتة ، دون مسوغ ، وإنها لتضيق بهذا الصداع ذرعاً ، فلو تركته يستفحل لأحال يومها جحيماً من الآلام .

ليت زوجها الساعة حاضر ، إذن لأسعفها بحبة من ذلك الدواء القوي الأثر الذي اهتدى إليه منذ قليل ، وجربه غير مرة في مقاومة الدَّوَّار الذي ينتابه من الكدّ والسهر ... الدواء يستأثر به الزوج ، خشية أن تعبت به خدم الدار ، والزوج يصون دواءه في مكان حصين ، في ذلك الصَّوَّان العتيّ الذي يستأمنه - فيما يزعم - على مكنوناته ونفائسه .

وإن « حسنية » أمضت سنيها الخمس في صحة زوجها لا تذكر في ساعة منها أن مفتاح الصَّوَّان وقع في يدها ، فهو في حوزة الزوج

لا يهمله هنا أو هنالك في ليل أو في نهار .

حَسَمَ أن تصبر على الصَّداع حتى يَتَقَدَّمَ الزوج بعد الظهيرة ،
إلا أن الصداع لا يقف عند حد ، ولم يعد للزوجة باحتماله طوق ، وإنها
لحماقة وبلاهة أن تبذل نفسها لهذا الشقاء ، وما ينبغي « لأحمد » أن
يرضاه لها بحال .

لو أنها استطاعت الآن أن تفتح الصوان المغلق ، وأن تحصل على
حبة من هذا الدواء الناجع ، لما كان عليها في ذلك من ثريب . . .
وهل يلومها الزوج الودود على أنها التمسّت سبيل النجاة من ألم وجميع ؟
ولكن كيف تبغى الوسيلة إلى الدواء ، وليس ثمة مفتاح للصوان ؟
وضربت جبهتها بغتة ، وإذا هي تهرع إلى حزمة من المفاتيح كانت
تحتفظ بها في أحد الصناديق ، وكان من دأب « حسنية » أنها إذا
استغنت عن مفتاح لسبب من الأسباب لم تهمله ، وقدرت أنها ربما
احتاجت إليه في يوم يحىء ، فاجتمعت لها تلك الحزمة الوافرة من المفاتيح
على كَرِّ الأيام . وما هي إلا أن ذهبت بتلك المفاتيح نحو الصوان
العتى ، ووقفت قبُلاته فترة لا تتحرك ، وهى تحس الهيبة والإحجام ،
ونخيل إليها أن الصوان يعيسُ أكثر مما هو عابس ، وكأنه يهتف بها
ينهاها أن تفعل ، واشتدَّ وجيب قلبها ، وثارَت على نفسها محنقة . . .
ماذا يبطئ بها ؟ هذا صِوانُ زوجها ، شريك حياتها ، وما يملك الزوجُ

شيئاً إلا وهو للزوجة حقّ مباح !

واندفعت تجرّب المفاتيح ، وهذا العجوز العنيد يستعصى عليها ؛ وكأنه يحمى حوزته من غزوتها . . . يا للويل ! . . . أتعيها هذه المفاتيح باقتحام تلك القلعة المتهمة البالية ؟ وجدت « حسنية » في تجربة المفاتيح : أنفاسها تتدارك ، وجبينها يسندى ، ثم أمسكت لحظات تمسح العرق ، وتتنفس من الأعماق .

وطار بها الفكر في أجواء شتى ، أواثقة هي بأن زوجها لم يلحقه تغيير ؟ لقد أخذت عليه بعض هسات كانت منه عفواً بلا قصد ، فمرة سقطت من حافظة نقوده ورقة ، فلما انحنت عليها تريد التقاطها سبقها الرجل إليها ، ودسها في حافضته عجلان يقول :

لا تهتمى . . . ورقة ليست بذات بال . . . سند غير مهم .
أحقاً كانت الورقة سنداً مهماً أو غير مهم ؟ ولماذا لم يدع زوجها تطلع عليها ؟

وهذه المكالمات التليفونية التي تلاحظ في بعضها أن زوجها أحرص ما يكون على الغموض والإبهام والاقتضاب . . .
قاتل الله ظنون السوء ، وما يجوز « لحسنية » أن تستسلم لأوهام على غير أساس .

وأحست الزوجة أن الصداق يكاد يفلق رأسها ، واضطربت المفاتيح

في يدها ، فعادت تبتغي الحصول على الدواء بتجربة المفاتيح عوداً على بدء . وفوجئت « حسنية » بأن الغلق يلين في دورة مفتاح ، وتحرك باب الصوّان ينفرج ، فحقق قلب الزوجة ، وهى تواجه فى وضوح النهار أسرار ذلك القلب الكتوم . . . وهبت عليها رائحة غريبة يشوبها غبار ، فثلثت قلبُ النظر فى أرجاء الصوان يستبد بها الفضول . . . تعساً له من صوان ترب ! هذه أضابير مكدّسة ، وتلك رسائل مبعثرة ، وبينها دفاتر مهمة . . . ألا ما أنفس ذلك الكنز الذى يستأثر الزوج بحفظه ، ويحرص على إخفائه عن العيون ! حسبه الله من رجل . . . لماذا لم يعهد بصوانه إلى الزوجة تتعهدده وتتفقده ، وتميط عنه ما يعلّق به من غبرات ؟

ومدّت يدها إلى بعض ما حوى الصوّان قلبه فى عجلة ، وكلما فرغت من قلبه شىء مدت يدها إلى غيره تتفحصه ، وقد بدا عليها تحمس واهتمام . وتطائر الغبار إلى خياشيمها يزحمها ، ولكنها لم تعبأ به ، فهى مجدة فى النكث والتقلب . . .

وعثرت يدها عفوّاً بلفيفة تكمن خلف الأضابير ، فجذبتها على الفور ، وكانت مغلفة بورق شفاف ، فنزعت الغلاف فى احتياج ، فتجلت لها علبة مكسوة بالخمّل الأرجوانى مما تصان فيه الحلى ، فأخذ فؤادها يرجف ، ونظراتها تضطرب ، وراحت تفتح العلبة ، فخطف

بصرها سوار مرصع بالماس ... وزوت الزوجة ما بين حاجبيها تتساءل :
سوار يلقيه زوجها في ذلك الحب ... بعيداً عن مرعى النظر ...
لمن يكون ؟

وكأنما طمح السوار إلى أن يجيب ، فكشف عن جانب من بطاقة
رشيقة ، مدت « حسنية » إليها إصبعها فانترعتها تقرأ :

« إلى سوسن الحبيبة

من الوفاء أحمد . »

وكأنما لمستها صاعقة هزت كيائها كله ، وتراءت لعينها غمامة
تحيب عنها ما حولها ، ولكنها تمالكت ، وما عتمت أن أقبلت على
السوار تحدق إليه في غيظ كظيم ...

هدية مختارة ما أغلى وما أبدع ... ولا سيما إذا جاد بها محام ناشئ
يقتدر في الإنفاق على بيته ، ويعول على ثروة زوجته !

ورفعت يدها تريد أن تقذف بالسوار في عرض الحجرة ، وبين
جنبها مِرْجل يحتدم ، بيد أنها سمعت في هذه اللحظة صرير باب الشقة
ينفتح ، ووقع خطوات تتابع ... إنها خطوات « أحمد » !

وألقت نفسها تدس في صدرها العلبة منطوية على السوار ، وعجلت
إلى باب الصّوان تغلقه ، وانفتلت من الحجرة ، فإذا هي تلتقي بزوجها
وجهاً لوجه .

وفطن الرجل إلى ما يبدو على سماتها من شُحوب ، فسألها : ما بك ؟
فأجابت وهي تتجاهد في إخفاء الأمر :

سؤال عجيب . . . ماذا تقصد ؟

فرفع جفنيه يتفحصها ، وازدادت هي من غضب واضطراب ،
فقال : سألتك ما بك ؟ هناك شيء بلا ريب . . . صارحيني !

فتضاحكت مستهزئة تقول :

أصارحك ؟ . . ولم لا وأنت مثال الرجل الصريح ؟

— أقسمتُ إن في الأمر سرّاً ، وإنك اغضبني !

فصاحت تواصل ضحكها البشعة :

أتراني غضبي ؟ وهل يسوءك أن أغضب ؟

— ما هذه المعميات ؟

— دعك من المعميات ، وأجبنى : فيم عودك على غير المألوف ،

ولما يمض على خروجك إلا وقت قصير ؟

— نسيْتُ حافظة نقودي ، فرجعتُ أخذها .

— بل إنك رجعت لتتجسس على ، ولتعلم ماذا أفعل بأشياؤك في

أثناء مغيبك .

— ما خطرك من هذا شيء . . . وما رجعت إلا من أجل حافظة

نقودي التي نسيتها .

— بل إنك نسيت ما هو أهم . . . نسيت هذه !
 وفيما كانت تنطق بجملة الأخرى ، ضربت يدها في صدرها
 تُخرج علبة السوار ، وتدفع بها في وجهه . . . واستأنفت قولها مهتاجة :
 هديتك لمن تحب . . .

فاكفهر وجه الرجل ، وهو يرمق العلبة . ثم همهم :
 أنتِ فتحت الصوان .

— فتحته ليكشف لي خداعك . . . من « سوسن » التي تخصها

بهديتك ؟

وتعالى صياحها ، وما لبث أن مازجه نشيج وهي تردد :
 من ؟ أجبني . . . أريد أن أعلم كل شيء . . . كفى ما كان
 من نفاقك ومن غشك !

وهجمت عليه تلكم صدره بسجُمع يدها ، وهي تقول :
 لن يكون لي معك بقاء بعد الآن !

واحتدَّ شهيقها ونحيبها ، ثم أحست بقواها تنهار ، فتهافت على
 أديم الأرض ، فاحتملها الزوج إلى المتكى ، ومدَّها عليه وهو يقول :
 لماذا تثيرين نفسك هذه الثورة ؟

وراح يسعفها ببعض المنعشات ، وهو يغيب عنها مرة بعد مرة ،
 ريثما يجلب كوب الماء ، أو قِنِينَةَ العطر ، أو غيرهما من الأشياء .

ورافقتها على المتكبر يدلك يديها ، ويربت كتفها ، ويلطف
جبينها ، ويناجيها بأعذب الكلام . . . فجعلت تستفيق شيئاً ، وهي
ترفع جفنها وتطبقه ، وتبعث بعض التهديدات .
وقال لها « أحمد » في تحنان :

لقد تعجلت في الفهم ، وأسأت بي الظن .
فعاجلت القول تردّ عليه : كفى ما كان !
— ستعرفين أنكِ توهمت شيئاً لا حقيقة له .

فسدّت إليه نظرة محسور أسيف ، فأقبل عليها يكمل قوله واضح
النبرات : أيدور في خمّاسدك أنى أخون عهدك ؟ أيكون جزاء الوفاء ظن
السوء ؟ ساحلك الله !
— وهذا السوّار ؟

فصاح : إنه هديتي إليك ، وقد أفسدت على خطي وتديري ،
إذ كنتُ مزماً أن أفاجئك به الليلة ابتهاجاً بكسبي قضية الأقطان الكبرى .
— و « سوسن » ؟

— لا وجود لها إلا في مُخَيِّلَتِكَ ، وقد راعنى أن تلفظى باسم لا
أعرف له مسمّى .

فاشرأبت « حسنية » إليه متعجبة حيرى تقول :
البطاقة مكتوب فيها اسم « سوسن » . . . أين العلبة ؟

وأبرز الرجل لها العلبة ، وفتحها في تودة ، فتجلى السوار باهر
اللائلاء يبدو خلفه جانب البطاقة ، فأسرعت « حسنية » تجذبها إليها ،
وتقرأ :

« إلى سوسو الحبيبة .

من الوفي أحمد » .

فابتدر الرجل يقول : أليس هذا هو الاسم الذى كنت أناديك به
فى مستهل عهدنا بالزواج ؟ ألسنت « سوسو » ؟ فأين « سوسن » التى
ترعنين ؟

وتراقصت ومضات الخواطر فى رأس « حسنية » ينفي بعضها بعضاً ،
ويختلط بعضها ببعض . . .

أقرأت اسم « سوسن » حقاً فى البطاقة ، أم خدعتها السرعة
والتهيج ، فحرفت الاسم ؟ . . . أصادق زوجها « أحمد » فى أن السوار
لها هدية وفى ؟

وتسامت ببصرها إلى الرجل تنفرس وتستوثق ، فواجهها بنظرة حنان
وإخلاص ، وعلى معارف وجهه بشر واطمئنان . وما لبث أن اقترب
منها ، حتى لامس فيه خدها ، وهو يهمس : أما زال قلبك على غضبان ؟
وإذا شفاهما تتلاقى فى قبلة شقيقة ، وإذا « حسنية » تطوق
« أحمد » بذراعها وهى تجيب : أنت أدرى بمكنون قلبي . . . !

فهرس

٥	.	.	.	.	.	.	.	أبو الشوارب
٣١	.	.	.	.	.	.	.	الحمراء
٤٧	.	.	.	.	.	.	.	الديك
٦١	.	.	.	.	.	.	.	كنا أربعة
٩١	.	.	.	.	.	.	.	بوذا « الرحيم »
٩٧	.	.	.	.	.	.	.	الفأرة
١١١	.	.	.	.	.	.	.	هناء
١٦١	.	.	.	.	.	.	.	العوامه
١٧٥	.	.	.	.	.	.	.	هدية

أحدث مؤلفات « محمود تيمور »

مجموعات قصصية:

زامر الحى
كل عام وأنتم بخير
إحسان لله
خلف اللثام
شباب وغانيات
شفاه غليظة
بنت الشيطان
مكتوب على الجبين
فرعون الصغير
قال الراوى
أبو الشوارب

قصص تمثيلية:

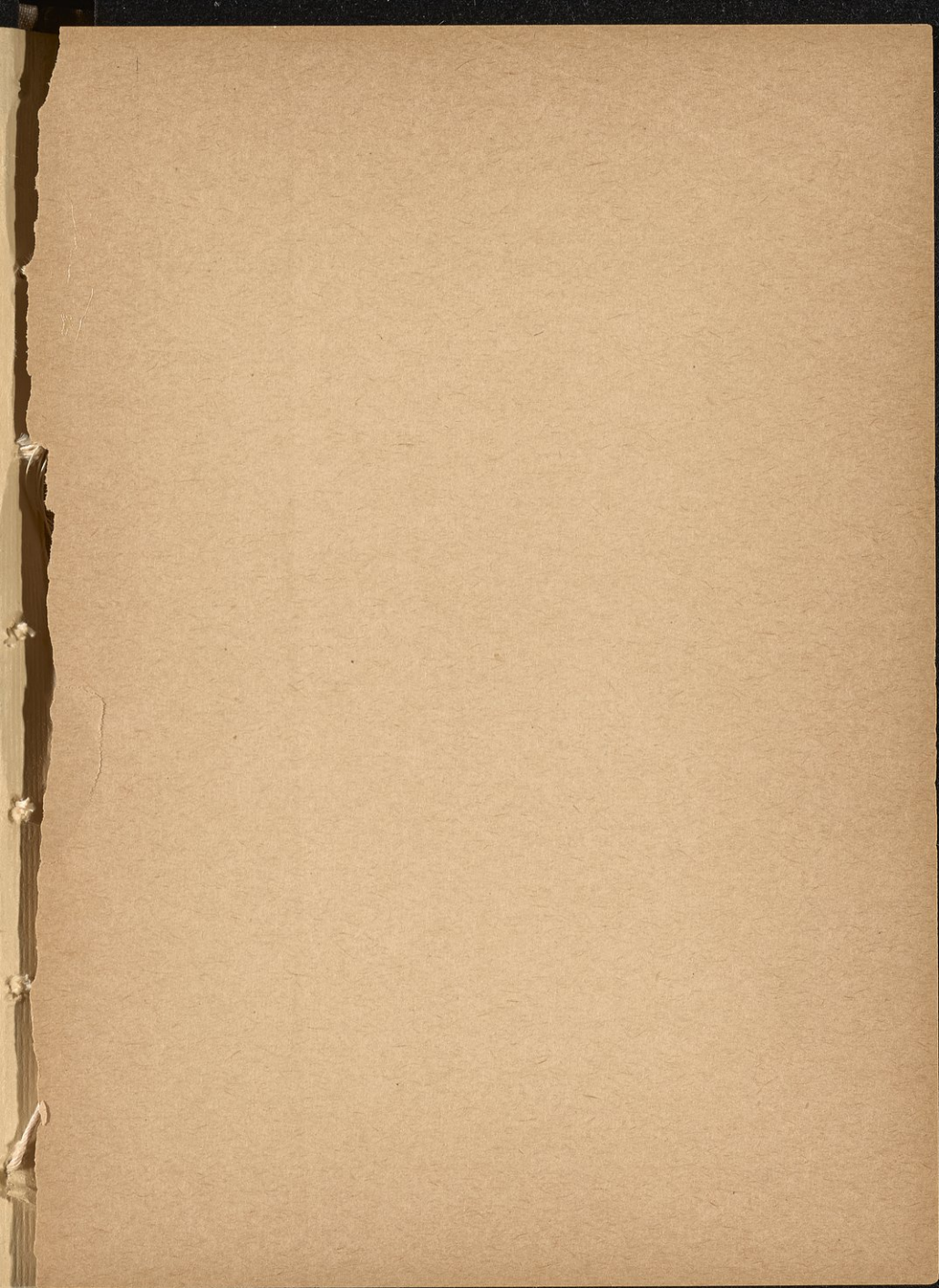
كذب فى كذب
المزيفون
أشطر من إبليس
ابن جلا
فداء
اليوم خمر
حواء الخالدة
قتابل
الخبأ رقم ١٣
سهاد
المنقذة
عوالى
أبو شوشة والموكب

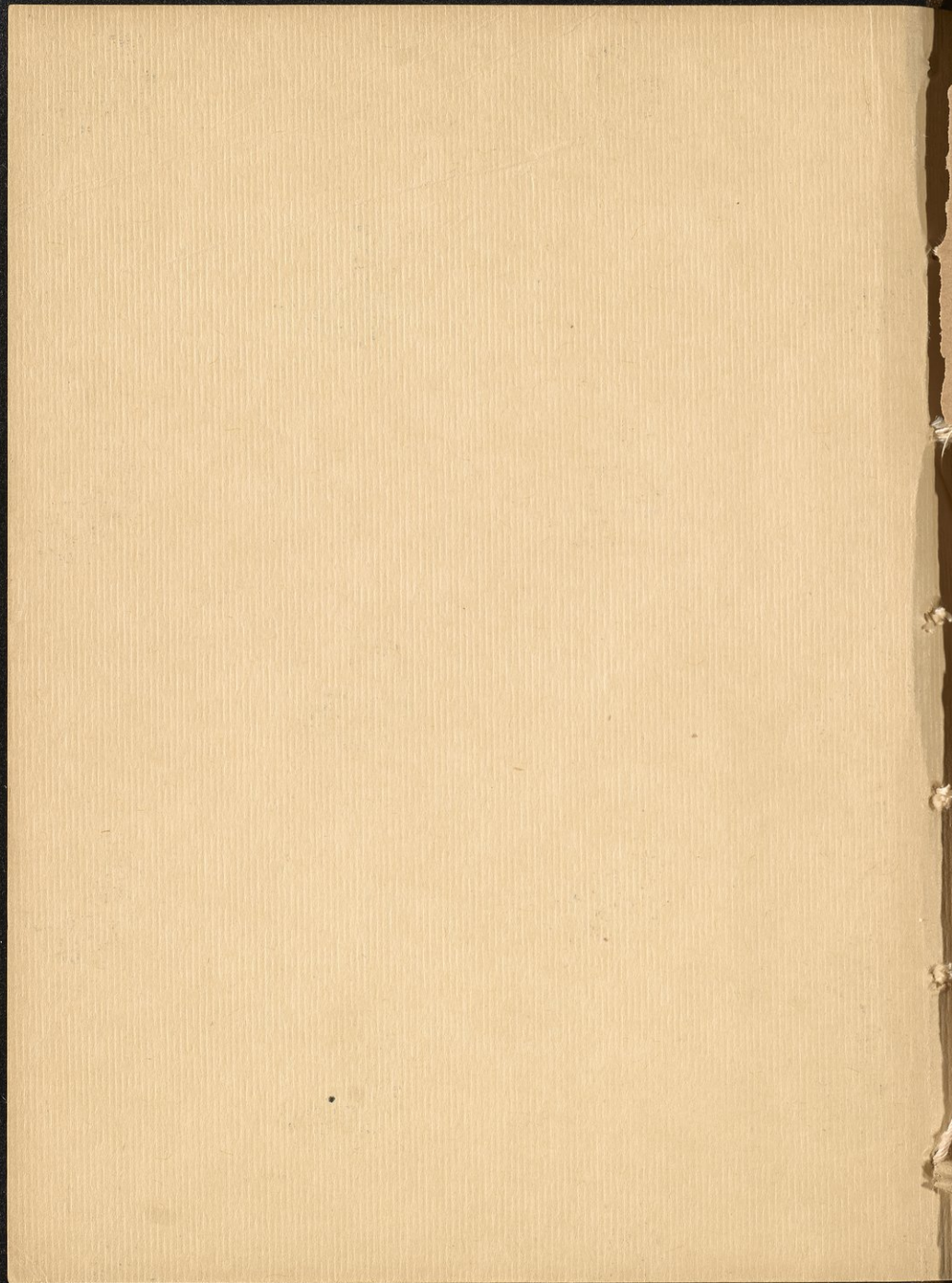
قصص مطوّرة :

كليوباترة فى خان الخليلي
سلوى فى مهب الريح
نداء المجهول

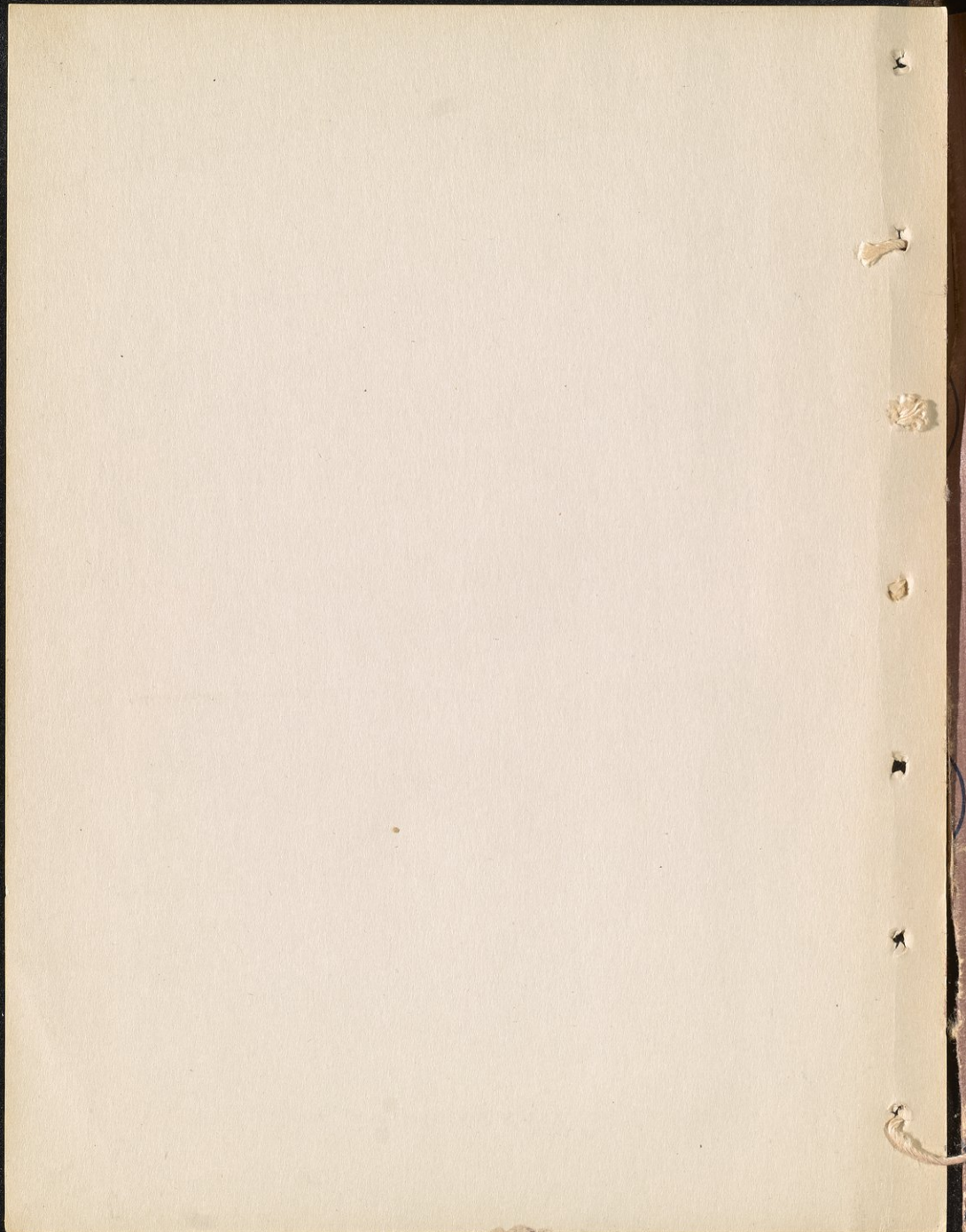
صور وفواطر :

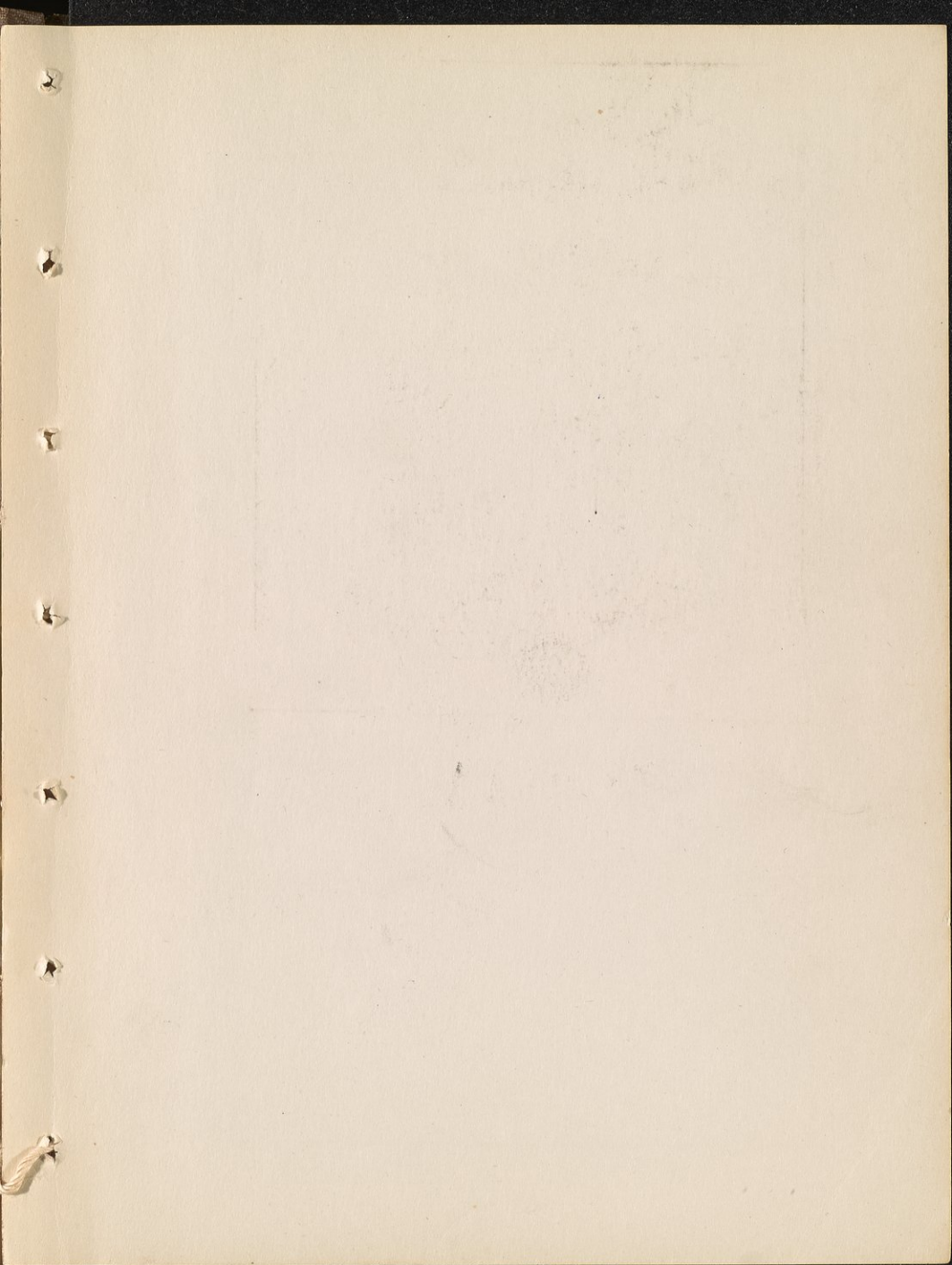
شفاء الروح
ملامح وغضون
أبو الهول يطير
عطر ودخان
فن القصص
ضبط الكتابة العربية











893.7T136

M33

BOUND

SEP 19 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58880658

893.7T136 M33

Abu al-shawarib wa q